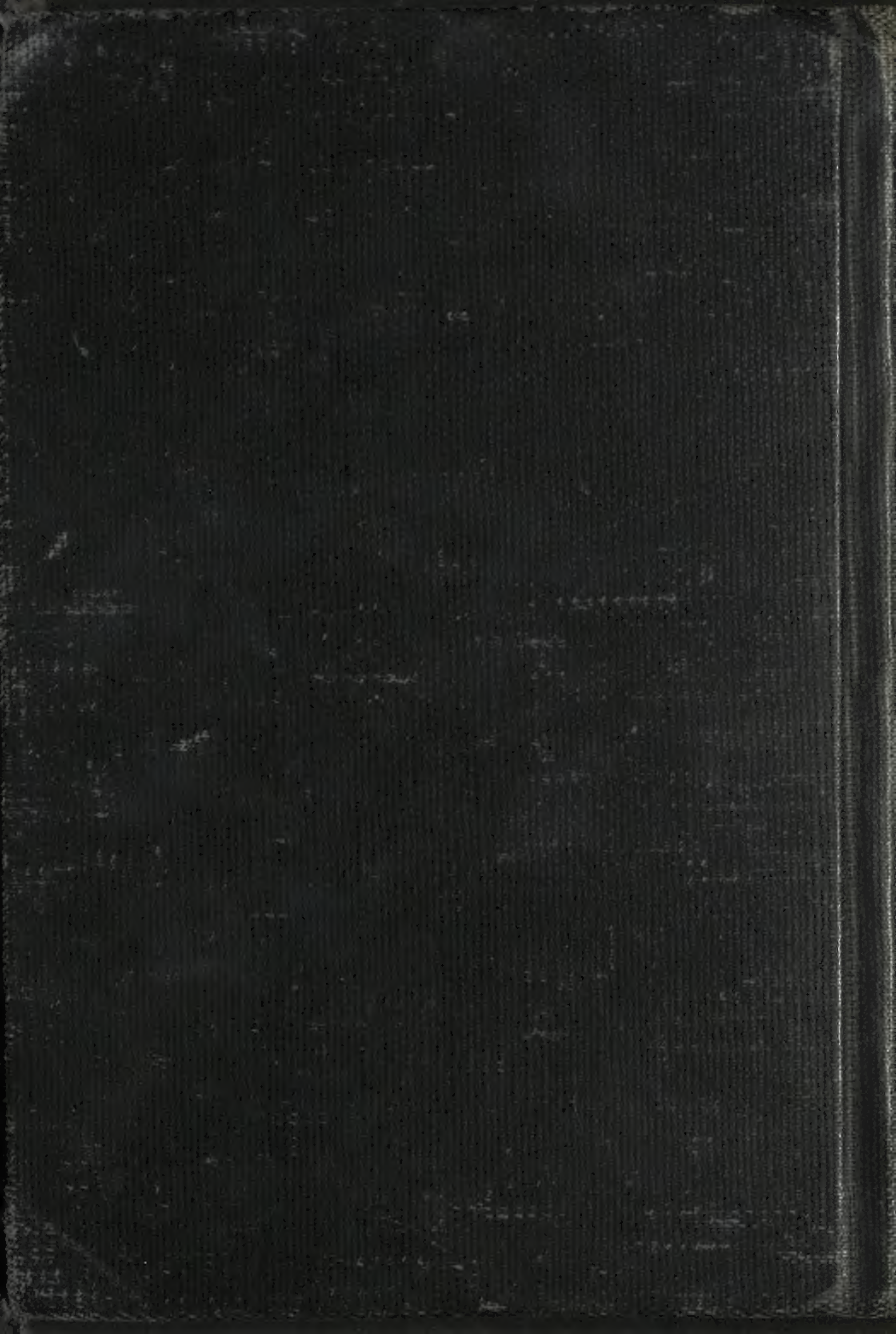
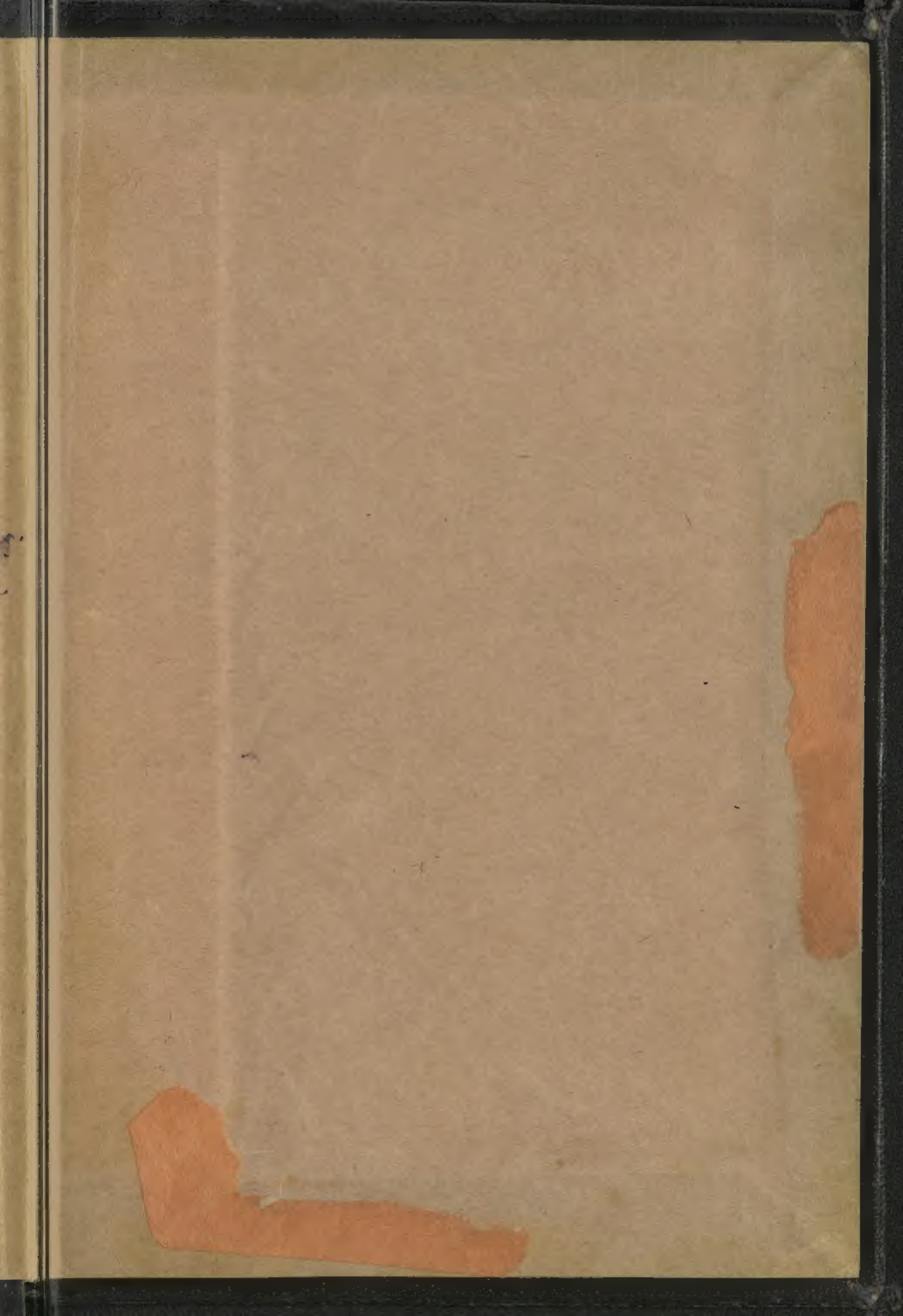
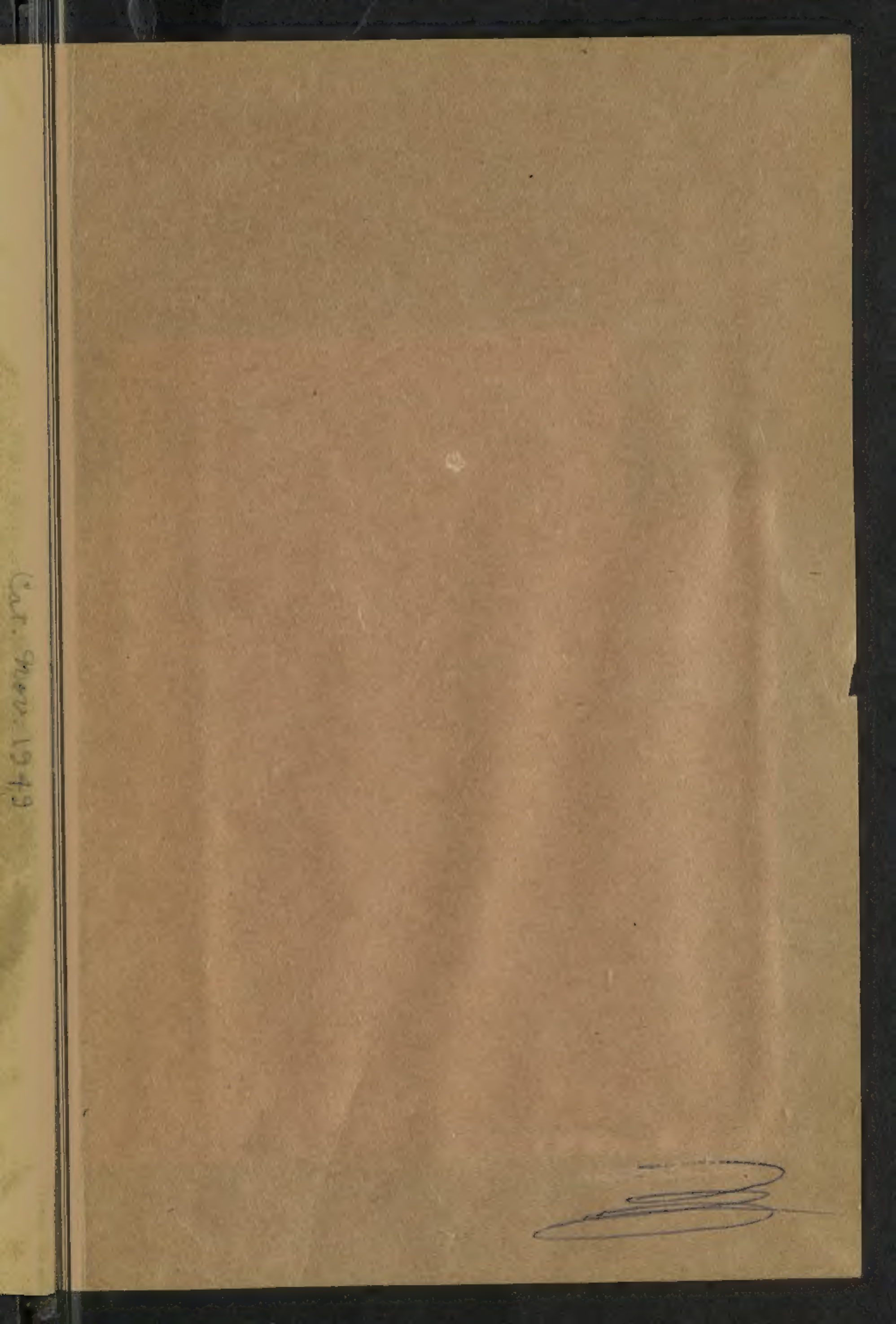






حافظ ابراهيم

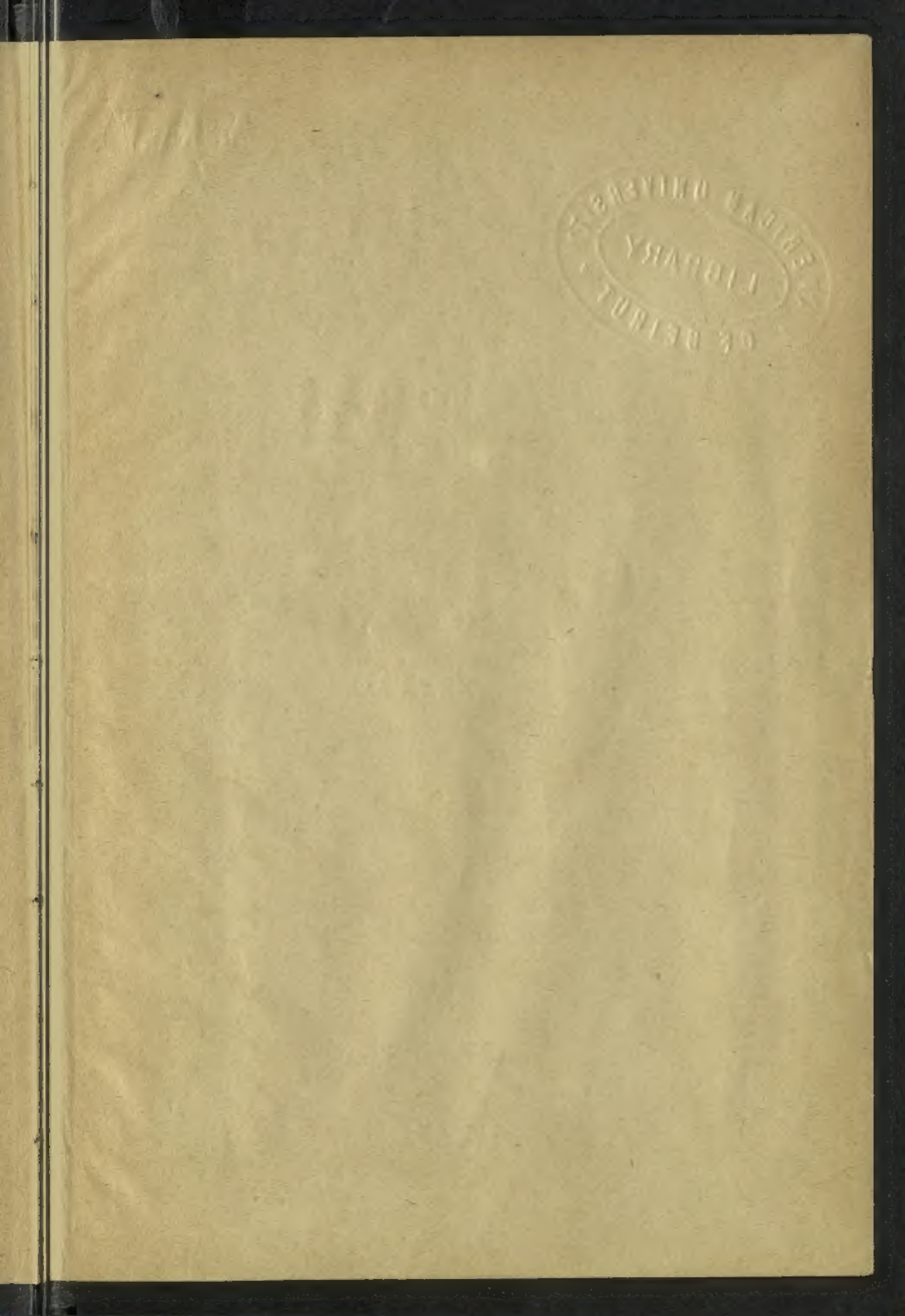
الشاعر السياسي

بقلم

روفائيل مسيحه
ليسانس فى الآداب ودبلوم فى التحرير والترجمة والصحافة
من جامعة فؤاد الأول

الطبعـــة الأولى
١٩٤٧

مطبعة الاعتماد بمصر



تقـــــديم

للأستاذ أحمد الشايب

أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب

فى سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ الجامعية كنت ألقى على طلاب السنة النهائية بمعهد الصحافة دروس الأدب العربى ؛ وكانت هذه الدروس نقداً أو انشاء ؛ ثم بدا لى أن أكلف هؤلاء الطلاب بأبحاث يقومون بها مرانة على الدرس المنظم واعداداً للنقد الصحفى السديد ؛ واشهد أنى رأيت منهم إقبالا مرضياً ، واستعداداً قوياً ، ونتائج تبشر بالنجاح . وكان مما لفت نظرى حقاً بحث للطالب روفائيل مسيحه فى « حافظ ابراهيم الشاعر السياسي » فوقفت عنده وأشرتُ على صاحبه أن ينشره إذا أراد بعد أن يعيد النظر فيه .

وأول ماراقنى فى هذا البحث إنما هو خضوعه لمنهج علمى سليم تتوالى فيه الحقائق التاريخية والفنية منسقة خالية من هـذه الفجوات التى تدع المعارف مبعثرة تـكد القارىء وتصرفه عن القراءة ، وتنبىء عن ذهن سطحى مضطرب لامنطق له ؛ لذلك لم أكد أبدأ هذا المقال حتى اندفعت للقراءة قدما لاأستطيع عنه انصرافا .هذا

فوق هدوء الكاتب ووضوحه والزامه نفسه الإستشهاد لكل دعوى وتعليل كل ظاهرة بعلتها المعقولة الحقيقية . . . ولعلى لا أعدو الصواب حين أعد من أفضال كلية الآداب اشاعة مناهج البحث والتشبث بها فيما يعالجه الأساتذة والطلاب من موضوعات ؛ ولعل هذه الميزة فى مقدمة ما أحيته الدراسة الجامعية فى مصر والشرق العربى جميعه ؛ لذلك كنت مبتهجاً حين رأيت هذا الطالب موفقاً فيما رسم من منهاج ، صناعاً فيما عرض من حقائق ، ناجحاً فيما انتهى اليه من النتائج والآراء .

بدأ بتعريف الشعر السياسى ؛ وتناول من حافظ ابراهيم وطنيته وتركياته وشرقياته ، وبين كيف جمع شاعرنا بين هذه النواحى على ماتبدو متناقضة ، وأقام ذلك كله على تحليل الشعر وتبين مافيه من نزعات . ثم انتقل الى السياسة المصرية فألمّ بعصر حافظ السياسى وعوامله وموقف الشاعر بين حريته اللازمة لفنه ووظيفته الحكومية اللازمة لحياته ، فهذا هو حافظ فى الجندية التى يضطر اليها اضطراراً ، فلم تنطقه بشعر الحماسة والفخر الذى هو فن الجندى الأصيل ، بل أنطقته بشعر الشكوى والأنين ؛ ذلك لأن شاعرنا ضاق ذرعاً بحياة لاتلائمه إما لطبيعتها وإما لما لابسها فى مصر والسودان من شئون وآلام ؛ فاذا برم بهذه الحياة واضطرب فيها أمره فصل من الجيش لعله يظفر بحرية الشاعر أو بتغريد الطائر . ولما كانت أخلاقنا القومية عماد حياتنا السياسية ، عنى بها حافظ وأخذ ينعى على قومه التواكل والانقسام ويدعو الى الجد

والوئام ويشيد بوجوه الاصلاح وطرائقه ، فكان بذلك شاعر قومه ولسانهم الصادق ، وصحيفة آلامهم وآمالهم سواء ماكان منها متصلا بالشعب نفسه أم بحكامه من المصريين أم بأولى الأمر من البريطانيين .

وكانت دعوة حافظ تتجلى أعظم ماتتجلى فيما سماه الكاتب « سياسته العملية » وذلك كان فى الشئون القومية الهامة كانشاء الجامعة الأهلية ، والنهوض بالمرأة المصرية ، وإقامة الجمعيات الخيرية والعناية بحال الطبقات البائسة ، إذ كان الشاعر فى هذه الجوانب أقوى ايماناً وأندى صوتاً ، واسرع الى مناصرة العاملين من زعماء الإصلاح الاجتماعى والسياسى فكان يضع جهده الأدبى بجانب جهودهم وكان بذلك من الدعاة المصلحين .

لم ينس الكاتب موقف حافظ من الاحتلال الانجليزى لمصر فكان ينكره وإن كان يعرف للانجليز جانب اصلاح مادى فى هذه البلاد وافقار جانب عقلى للناشئين ، كما عرف لهم مواهبهم الخلقية والسياسية التى جعلتهم دهاة العالم وأقطاب سياسته ؛ فاذا خفت وطأة الاحتلال بالنهضة الأخيرة ، وأخذت مصر طريقها إلى الحرية الداخلية والخارجية نجد شاعرنا يساير هذه النهضة ويسجل ذلك النشاط السياسى ، ويستعجل الحياة النيابية ، ويقف بجانبها ومناصراً مسروراً .

الواقع أن الكاتب دل ببحثه هذا وبما عقد فيه من موازنات بين الشاعر وسواه من الشعراء والكتاب والخطباء على استعداد لمعالجة

الموضوعات الأدبية التاريخية فى هدوء وسكون ولـكن فى توفيق ونجاح ، وأنا هنا أشير عليـه ، وقد أحسن الالمام بحياة حافظ ابراهيم و بعصره وفنه ، أن يستقصي دراسة هذا الشاعر ، وأن ينهج فيها منهجاً يلائمها ، فلعله بالغ فيها جميعاً ما بلغ فى هذا الجانب الهام منها ومع ذلك فلست بهذه المشورة حائلا دون اذاعة هذا البحث ، وهانذا أخلى بين القارىء و بينه ليجد فيه ثمرة لمجهود جزئى ولـكنه نافع قويم ؟

أحمد الشايب

١

يقصد بالشعر السياسى لشاعر ما ذلك الجانب من شعره الذى يتناول فيه أحوال قومه وعصره فى شئون الحكم وأمور السلطان ... فالشاعر كفرد من الناس إما أنه يعيش على هامش الحياة السياسية لا يأبه لها استقامت أم اعوجت ، هدأت أم أضطربت ؛ وإما أنه على العكس من هذا يعيش فى غمار السياسة ، تستجيب نفسه لتياراتها ، فينطلق شعره معبرا عن هذه الاستجابة وعن هذا الشعور كما ينطلق بأية عاطفة أخرى من حب ومدح وفخر وغيرها من أبواب الشعر المألوفة . نقول أن الشاعر فى هذه الحالة يصدح بعاطفته السياسية و ينشد شعره للتعبير عن آرائه وخطراته فيها . وهى حين تصدر عن عاطفة قوية وخبرة صادقة وعن أمل فى انهاض قومه واصلاح شأنهم حين تعوج بهم الأمور وتختل تكون بلا مراء ناحية لها قيمتها فى ثروة الشاعر وتراثه الفنى .

والشاعر الذى نحاول أن نجلو هذه الناحية السياسية من شعره ونتناولها بشىء من التحليل فى هذه العجالة شاعر سياسى من الطراز الأول ، لا لكثرة ماقاله فى السياسة — بالنسبة لغيره من الشعراء على الأقل — فحسب ، بل لما تتميز به هذه الناحية من شعره بالصراحة الجمة فى حالات و بالحذر الشديد والتهيب فى حالات أخرى ، بالشدة والعنف تارة و باللين والهوادة تارة أخرى مما تتميز فيه شخصية الشاعر ومميزاته الفنية تميزا صادقا . فالشعر السياسى عند حافظ ابراهيم يكاد يكون صوره صادقة لنفسيته بل لنفسية العصر الذى كان يعيش فيه ؛

وهو متأثر فوق هـذا الى حد بعيد بظروف حافظ فى حياته وأطوارها المختلفة حتى ليكاد الإنسان وهو يقرأ سياساته أن يستشف منها بسهوله ووضوح أى نوع من الرجال هو واية أمواج كانت تتجاذبه وأية الوان كانت تصطبغ بها نفسه . . . ولعل هـذا كله آية بينة لصدق الشعور الذى كان يسير حافظا فى شـعره ؛ وهذه ميزة تغتفر له مانقص شعره من النواحى الفنية التى قد تؤخذ عليه بحق فى بعض الحالات .

٢

ونحن إذا حاولنا أن نحلل شعر حافظ ابراهيم السياسى الى عناصره وأن نبين خصائص كل من هذه العناصر و بواعثها ودلالاتها كان جديرا بنا أن نبدأ بما يمكن أن نسميه « وطنيات حافظ » أى ذلك الجانب من شعره الذى أشاد فيه بوطنيته وتاريخــه وماضيه ومآثره . وهذه الناحية وأن تـكن تبدو أبسط مظاهر الاهتمام السياسى بأحوال البلاد ، فكل منا بلا ريب يكن لوطنه كل اعجاب بالمـاضى المجيد لأن مصر تفرض على بنيها وعلى غير بنيها مثل هذا الاعجاب ألا انها ذات أهمية خاصة فهى البذرة الأولى التى تتفرع عنها نواحى الوطنية الأخرى ومن بينها وطنية السياسة .

ومن الجلى أن مصر كانت تحتل من نفسية حافظ مكانا محموداً ؛ وحسبنا أن نسوق الى القـارىء هذه الأبيات ليلمس بين ثناياها تلك العاطفة الوطنية الملتهبة التى كانت تذخر بها روحه .

كم ذا يكابدُ عاشق ويلاقى ... فى حبِّ مصر كثيرة العشاقِ
إنى لأحملُ فى هواك صبابةً ... يامصر قدخرجت على الأطواقِ
لهفى عليك متى اراك طليقةً ... يحمى كريمَ حماكِ شعبٌ راقِ
كَلِفٌ بمحمود الخلال متيَّمٌ ... بالبذلِ بين يديكِ والانفاقِ

وهو إلى جانب هذا معجب بتاريخ وطنه القديم ايما اعجاب ؛ وهو حين يحزب به الأمر أو بقومه وحين تأخذه الشفقة على ما هم فيه فى حاضرهم تراه ينطلق الى الماضى المجيد انطلاقا طبيعيا ليجد فيه عزاء وسلوى ، وليجد فية قوة دافعة الى العمل والجد واسترجاع غابر المجد . وهذه الناحية عند حافظ الشاعر وإن تكن ضئيلة باهتة اذا قيست بما تغنى به شوقى مثلا فى مجد الفراعنة الأولين بقصائد هى من خير قصائده فأنها تفصح لنا عن مصرية حافظ الذى اسبغ عليه بحق لقب « شاعر النيل » . وهذه الأبيات التى جاءت فى قصيدته « مصر » . تنطق بعاطفته المصرية الصميمة .

وَقَف الخلقُ ينظرون جميعا ... كيف أبْنِى قواعدَ المجدِ وَحْدِى
وبناةُ الأهرامِ فى سالف الدهرِ ... كفَوْنِى الكلامَ عند التحدى

إلى أن يقول بلسان مصر :

ما رمانى رامٍ وراحَ سليما ... من قديم عنايةُ الله جُنْدِى
كم بَغَتْ دولةٌ علىَّ وجارت ... ثم زالت وتلك عقبى التحدِّى
اننى حرةٌ كسرتُ قيودى ... رغمَ رُقبى العدا وقطعتُ قيدى

وهكذا ينطلق شاعرنا مشيداً بمجد الفراعنة فى تعصب شديد وحماسة بالغة ينسيانه أحيانا الحقيقة المعتدلة ويقربانه الى المبالغة والمغالاة . . . فجميل منه مثلا أن يذكر فى الابيات الآتية أسطول مصر وأن يذكر أن أول عقد فى تاريخ المجتمعات البشرية انما وجد فى بلاده القديمة ؛ ولكنه يذكر بعد هذا أن الرومان قد أخذوا قوانينهم جميعا عن مصر على ما فى ذلك من مغالاة واضحة قد تقبل من شاعر فى معرض الفخر ولكن ليس من شك أنه يصعب على العالم المحقق الذى يتحرى الحقيقة الخالصة اقراره على ما ذهب إليه :

قد عقدتُ العهودَ من عهد فرعو ... نَ ففى (مصر) كان أولَ عقدِ
أنا أمُّ التشريع اخذ الرو ... مانُ عنى الأصولَ فى كل حدِّ
قبل أسطول (نلسن) كان اسطو ... لى سريًّا وطالعى غير نكد
فسلوا البحر عن بلاء سفينى ... وسلوا البر عن مواقع جُرْدى

ويبلغ اعجاب شاعرنا بمجد الفراعنة حداً يغار معه على جثث هؤلاء الملوك الذين طبقت شهرتهم الآفاق والذين صارعت ذكراهم بل وأجسامهم ذاتها الزمن وصرعته فتراه يشفق على هذه الجثث من أن تعرض للمشاهدة والفرجه على نحو لا يليق بكرامة ملوك جلسوا على عرش مصر الذى هو والخلود صنوان . . . ونحن نذكر أن الحكومة تنبهت أخيراً إلى هذا الأمر فردت الى هذه الجثث الكريمة كرامتها ، الأمر الذى نادى به حافظ منذ سنة ١٩٢٠ حين قال :

رأيت جثة (خوفو) ... بقرب (سيزوستريس)

فقلت ياقومُ هـذا صنعُ العقوقِ الخسيسِ
أجسادُ أملاك مصرٍ وشائدِى مَنفيسَ
من بعد خمسين قرناً لم تسترح فى الرموسِ
أرى فراعينَ مصرٍ فى ذلّة ونحوسِ
معروضةً للبرايا أجسادُهم بالفلوسِ
عنهمْ نَبَشْنا زمانا فى مُظلِمات الدروس
فديسَ ظُلماً حماهُم وكان غيرَ مدوسِ
لو أنّ أمثالَ (مينا) فى الغرب أو (رمسيسِ)
بَنَوْا عليهم وحطُّوا حظائرَ التقديسِ

وهذه المصرية الخالصة الصادقة تعود فتفصح مرة أخرى عن نفسها فى أبيات من قصيدته إلى الأمير حسين سنة ١٩٠٩

لَعَمْرُكَ ما أَرِقتُ لغيرِ مصرٍ ومالى دونَها أملٌ يرامُ
ذكرتُ جلالَها أيامَ كانتْ تصُولُ بها الفراعنةُ العظام
وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ وأيام الزمانُ لها غلام

فأنت ترى أن حافظاً كان مصرياً فى وطنيته يرى فى ماضى مصر المجيد مجداً وجلالا يجب أن يذكر وأن تشدو به النفوس. وقد يبدو هذا أمراً طبيعياً متوقعاً من كل مصرى؛ ولكننا اذا ذكرنا أنه من بين المصريين أنفسهم فريقاً — وإن يكن أمره هينا — يسفّه من مدنية الفراعنة ويندد بها ويرى فى أعلامها من آثار ومبان مظهرا من مظاهر

الوثنية والكفر غير جديرة بأية اشادة أو بأى اعجاب . . اذا ذكرنا هذا كان حقيقاً بنا أن نقدر فى حافظ هذا العهد المقيم لمصر القديمة وهذه الاشادة الصادقة بمجدها وتراثها الخالد .

٣

الى جانب هذه العاطفة المصرية التى يبديها شاعرنا نلقى عاطفة أخرى لاتقل عنها ان لم تكن أكثر منها جلاء ووضوحاً هى العاطفة نحو الترك والخلافة . . . نقول إنها أكثر وضوحاً وجلاء لأن ما قاله فى الخلافة وفى الأتراك أكثر مما قاله فى مجد الفراعنة وفى مصر . . . لم يتول خليفة إلا وصاغ له شاعرنا قصيدة يهنئه فيها ؛ ولم يأت عيد جلوس للسلطان الا ونظم مادحاً مهنئاً . وحين تحتفل تركيا بذكرى تأسيس الدولة العلية يحرص على الاشادة بمجدها وتاريخها وعظمة خلفائها وسلاطينها .

ويهمنا بالطبع أن نورد أمثلة لما قاله فى هذا الشأن . قال يهنئ السلطان عبد الحميد :

وكمْ حاولوا فى الأرضِ اطفاءُ نورِه ... واطفاءُ نورِ الشمسِ من ذاكَ أقربُ

وفى عيد الدولة العلية يقول عنها مادحاً ومشيداً بماضيها و بعظمة سلاطينها الأوائل :

بناها فطنّتْها الدرارى مَنَازِلاً ... لبدرِ الدُّجى تُبْنَى وللسعدِ تُنْصَبُ
وقام رجالٌ بالامامةِ بعدَه ... فزادُوا على ذاكَ البناءِ وَطَنَّبُوا

وردُّوا على الأسلام عهدَ شبابهِ ... وَمدُّوا له جاهاً يُرَجَّى ويُرْهَبُ
أسودٌ على السفور تحمى عرينَها ... وترعى نيامَ الشرقِ والغربُ يُرقبُ

. . . .

فهذا سليمانٌ وقانونُ عدْلِهِ ... على صفحاتِ الدَّهرِ بالتبرِ يُكتَبُ
وذاكَ الذى أجْرَى السَّفينَ على الثَّرى ... وسار لهُ فى البرِّ والبحرِ مركبُ

وغير هذا كثير مما يدل على أن الخليفة العثمانى والخلافة العثمانية كان لها مكان فسيح فى نفس شاعرنا ووجدانه السياسي . . . وقد يدفعنا هذا إلى التساؤل كيف يمكن التوفيق بين العاطفة المصرية والعاطفة التركية والجمع بينهما فى آن واحد ؟! ألم يكن الترك فى علاقتهم الأصلية بمصر قوما فاتحين وغزاة للوطن ؟ ألم يكن إستقلال مصر إلى ذلك الحين مشوبا بالسيادة التركية أو بظلها ؟ والوطنية الصادقة لاتستسيغ هذه الشائبة ولا تقبلها . فهى أن لم تقاومها أو تدفعها فلا أقل من أن تمسك عن مدحها والإشادة بها ؟!

أن قولا كهذا قد يكون مقبولا فى العصر الذى نعيش فيه والذى تمثلت فيه القومية المصرية كاملة غير ناقصة والذى عملت فيه الأحداث التاريخية عملها فقضى على سلطان الترك فى مصر وأصبحنا ندرك القومية المصرية الخالصة والإستقلال المصرى التام بعيداً عن الخلافة وعن الترك . ولكن ليس من الإنصاف فى شىء أن نحكم على العصر الذى قال فيه حافظ ماقال بمقاييس العصر الحديث ونطالبه بأمر فصر عصره وأوانه على تحمله وقبوله ، ومن خصائص حافظ أنه صورة صادقة للعصر

الذى كان يعيش فيه . ومن هنا كانت أشادته بالخلافة العثمانية أمراً لاشائبة فيه من الناحية السياسية أو القومية ... فالخلافة فى ذلك الحين كانت مظهر الوحدة الاسلامية ، ومصر جزء من العالم الاسلامى إن لم تكن أعظم أجزائه وأكبرها خطراً ... فلم يكن من المعقول أن ينادى فى هذا العصر بالإنفصال عن جسم الدولة أو بأهمال شأن الخليفة أو الغض من قدره ... إن مصر كانت آنئذ جزءاً من الدولة العلية من الناحية الدولية ، وكانت تشعر أن من واجبها القومى أن تبقى على الولاء لولى الأمر .

ولعمرى إن الدعوة إلى المصرية الخالصة فى ذلك الأوان كانت تنطوى على انحراف عن جادة السياسة القويمة التى أستقر عليها الناس فى العالم الاسلامى عامة وفى مصر بنوع خاص . فالخلافة العثمانية كانت والحالة هذه اقرب لأن تكون مقوماً من مقومات القومية المصرية . ولعلنا نذكر أن مصطفى كامل نفسه وهو نبى الوطنية فى مصر وباعث نهضتها القومية لم يجاهر ولم يكن له أن يجاهر باستقلالها عن الخلافة ... نعم لم يكن له أو لغيره أن يجاهر بشىء من هذا فى الوقت الذى كان ينادى بجلاء البريطانيين عن بلاده ، فقد كان فى عمل كهذا انتقاض على تركيا التى كانت ترى نفسها صاحبة الحق الشرعى فى مصر ... فلم يكن ببعيد بل كان من المعقول أن تترصد تركيا من جانبها للحركة القومية فى مصر إذا ما نودى بالانفصال عنها . فأبسط مبادىء الحكمة السياسية كانت تقضى على الوطنيين من المصريين أن ينتهجوا خطة

مصانعة تركيا كى يكسبوها فى صفهم أو على الأقل يجنّبوا أنفسهم مقاومتها أو اتفاقها مع انجلترا ضدهم . . . ومن هنا نرى أن الاحتلال البريطانى كان دافعا لمصر الى التعلق بتركيا .

ومما كان يهون من أمر تركيا وسيادتها على مصر أن هذه السيادة كانت فى الواقع اسمية لافعلية . فاذا كانت مصر تبدى تعلقاً بتركيا فقد كان هذا أمراً صوريا بحتا لايكاد يسىء فى شىء الى مركز مصر السياسى بعد ان استقرت علاقتها بتركيا منذ القرن التاسع عشر الى نوع من الاستقلال الذاتى . ناهيك بما كانت عليه تركيا فى ذلك الحين من الضعف السياسى والحربى على نحو لانظن معه أنها كانت تقوى على النيل من هذا الوضع الممتاز الذى كانت قد كسبته مصر فى عهدى محمد على واسماعيل . فالخطر الداهم على القومية المصرية لم يكن آتئذ من جهة تركيا بل من جهة البريطانيين الذين كانوا محتلين للبلاد عسكريا و إداريا .

٤

ولقائل أن يقول إن ذلك المعنى للقومية المصرية الخالصة لم يكن مجهولا تماماً بين المصريين ، وهذا أحمد لطفى السيد يدعو فى (الجريدة) عام ١٩١٢ الى الفصل بين القومية والدين والى عدم الخلط بينهما ؛ و ينادى فى صراحة تامة باختصاص المصريين دون سواهم بقومية وطنهم؛ منكرا أن تكون هذه القومية حقا لغير المصريين من الشرقيين فتراه يقول « . . . ولكن كثيرا منهم لايقيم وزنا للقومية المصرية فى تربية

الشعور المصرى . يقول إن مصر ليست وطنا للمصريين فقط بل هى وطن لكل مسلم يحلّ فى أرضها سواء كان عثمانيا أو غير عثمانى فرنسيا أو انجليزيا صينيا أو يابانيا . . . . على ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية معدمة ؛ ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الاستقلال؟ وادنى مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية فى مسطح من الأرض محدود بحدود جغرافية معينة »

«... غير أن هذا المذهب على تناقضه يوافق أمزجة العامة أكثر من مذهب القانون المصرى لأن أصحابه يكسونه كساء من الدين يجعله سائغا عند البسطاء وإن كان العمل به مناقضا كل التناقض لما تطلبه الأمة من الاستقلال بل يناقض الصيغة المصرية المقدسة (مصر للمصريين)»

نعم يجوز أن يقول أى انسان إذا كانت العقلية المصرية قد وصلت الى فهم القومية المصرية على هـذا النحو ووصلت بتخليصها من أية شائبة الى هذا المدى الذى نراه فى هذه العبارة فكيف تقصر دون تمثلها منفصلة عن السيادة التركية ! ؟

أما نحن فنلاحظ أن هذه النغمة كانت خافتة ضعيفة لم تستطع أن تشق طريقها الى أفئدة القوم ؛ ثم هى عجزت بلا مراء عن أن تتخذ شكل دعوة عامة أو حركة منظمة تحتل مكانا ملحوظاً فى كيان البلد السياسى ، ولم تزد عن أنهـا كانت خطرات عابرة ليس فى استطاعتنا أن ننكر انها جازت وجداننا السياسى ولكن ليس لأحـد أن يدّعى انها استقرت فيه أو سيطرت عليه فى قليل أو كثير . . . وعلينا أن نذكر

أخيرا أن هذه النزعة انما كانت تمثل الارستقراطية الفكرية فى مصر ولم تكن العقلية الشعبية لتتحملها أو لتقوى على هضمها أو تمثيلها .

ولعل مما ألح على حافظ بهذا الولاء للخلافة والاشادة بالسلطان العثمانى و بأفضال العثمانيين ذلك الشعور العام الذى أوجده النزاع بين السلطة المحتلة والمصريين . . . فلكى يدفع القوم عنهم قوة الاحتلال أو يخففوا من أثره النفسى عليهم أخذوا يوحون الى أنفسهم انهم جزء من الدولة العلية وانهم من رعايا مولانا السلطان ؛ وليس لأحد بهذا الوضع أية سيادة أو نفوذ عليهم ؛ فلم يكن من حسن السياسة أو إصالة التدبير أن يقاوم المصريون النفوذ العثمانى ويدعوا إلى استقلال بلادهم عن الخلافة وهم يرون تحت أبصارهم مركز الاحتلال البريطانى فى بلادهم ؛ فان عملا كهذا يكون بمثابة القذف من المقلاة إلى النار .

إنما الاحداث السياسية وحدها هى التى مهدت السبيل للمصريين كى يدركوا القومية المصرية خالصة وكى يعملوا على تحقيقها . . ذلك أن « الاستقلال التام » لم يكن ليلوح فى أفق السياسة المصرية إلا بعد أن تخلصت مصر من السيادة التركية عام ١٩١٤ حين انضمت تركيا الى الأعداء فى الحرب العظمى ؛ ومن ثم أخذ معنى الاستقلال ينحصر فى التخلص من الحماية البريطانية ؛ وهذا ما حدث بالفعل . . فأنت ترى أن تعلق مصر بالخلافة كان بمثابة تقليد سياسى أوحت به طبيعة الأشياء وضرورات الاحوال ؛ وحسب حافظ ابراهيم ان يحسن التعبير بشعره عن هذا التقليد الذى تواضع عليه عصره : وقد كان قبل كل

شیء شاعراً يحس عواطف قومه و يتأثر بمعاييرهم إلى حد بعيد ؛ وليس لنا أن نطالبه بأن يكون زعيما يغير من اتجاهات قومه على نحو يوافق معاييرنا ومقاييسنا الحاضرة .

٥

ولم يكن بغريب والحالة هذه أن يسير شاعرنا بعاطفته نحو الخلافة الى مدى أبعد من الخليفة كشخصية دينية أو سياسية ... الى الترك أنفسهم كأمة وشعب . أليس هؤلاء هم قوم الخليفة و بنو جنسه الاقربون؟ أليس الترك الى جانب هذا شعبا شرقيا مجد الشرق من مجده ؛ و بقدر ما ينهض هذا الشعب يكون نهوض الشرق والاسلام ؟ ومن هنا أخذ شاعرنا يتغنى بنهوض الشعب التركى وراحت نفسه تستجيب استجابة الفرح والزهو كلما بدت عليه امارة من أمارات النهوض والتقدم العمرانى أو السياسى . . .

لنسمع الآن شيئا من مديح حافظ للترك ، ولعل من أقوى ما قاله فى هذا المجال قصيدته فى عيد الدستور العثمانى سنة ١٩٠٩ والتى جاء فيها

هنيئاً لهم ولكونُ فى يوم عيدِهم	مشارِقة وضّاءة ومغاربُهْ
رعى الله شعباً جمعَ العدلُ شملَهُ	وتمّتْ على عهدِ الرشادِ رغائبُه
إذا ثارَ دُكّتْ أجبُلٌ وتخشّعتْ	بحارٌ وأمضى اللهُ ماهو كاتبُهْ
وثُلّتْ عروش واستقرّتْ ممالكٌ	ولو أنّ ذا القرنين فيها يُناصبُهْ

. . . .

ستملك أمواجَ البحارِ سفينهُ كاملَـكَـتْ شمَّ الجبال كتائبُه
ممالكُه محروسة وثغوره ركائبُه منصورة ومراكبه

وتحيته للاسطول العثمانى سنة ١٩١٠ دليل آخر على تعلقه بالترك وحرصه على الاشادة بهم .

حىِّ يامشرق اسطولَ الأولَى ضربوا الدهرَ بسوطٍ فستقاما
ملكوا البرَّ فلما لم يَسَعْ مجدهُم مالوا من البَحْرِ المراما

ولنختم هذا القدر من « تركيات » حافظ أو « عثمانياته » ببعض من من أبياته فى القصيدة التى كان قد أعدَّها لاستقبال الطيار فتحى

أهـــلا بأوّلِ مُسْلِمٍ فى المشْرقين علاَ وطارْ
النيلُ والبسفور فيك تجاذبا ذَيْلَ الفخـــار
يوم امتطيْتَ براقكَ الـ ميْمونَ واجتَزتَ القِمار

. . . .

واجعـــل تحيّتَنا الى بَـــلَد به للمُلْكِ دار
دارٌ عليها للخـــلا فـةِ والهُدى رُفعَ المنار
دارُ الغـــزاةِ الفاتحـــينَ الصفوةِ الغُرِّ الخيار
فى كلِّ حاضرةٍ لهمْ غزْوٌ ففتح فانتصار
ضربوا الزَّمان بسوط عِزّتهـــم فلانَ لهم ودار

لعل القارىء قد كوّن له فكرة واضحة من الامثلة التى سقت اليه

عن مدى الروح التركية التى كانت تتملك عواطف حافظ ، ولعله يتساءل معى فى نفسه ماذا كان لشاعر تركى أن يقول أكثر مما قال فى مثل هذه المناسبات التى أثارت شاعريته بعاطفة الفخر والمدح فأشاد بهؤلاء القوم و بمظاهر العظمة والرقى التى كانوا يبدونها ؟ ! نعم يلوح لنا أن ماقاله شاعرنا فى هذا لم يكن ليقل من حيث القوة فى التعبير ودقة الصياغة الفنية عما قد يقوله شاعر من الأتراك أنفسهم اذا خاض بشعره فى مثل هذه المواقف والمناسبات .

٦

ولكنا نحرص بعد هذا على أن نشير إلى ظاهرة لها دلالتها ، ذلك أن حافظاً الذى ألفيناه ينظم الشعر اشادة بالخليفة العثمانى و يرسل القريض إعجاباً بالترك فى مناسبات كثيرة يسكت فجأة عن الترك والخلافة كليهما حتى ليكاد يطلقهما من حياته الفكرية أو النفسية إلى غير رجعة ، وكان ذلك عقب الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ . . . فمنذ ذلك الحين لانرى أثراً ولو ضئيلاً لتلك الروح التركية القوية التى كانت تثير شاعريته من قبل ، فى حين نرى أن شوقى لم تخبُ فيه هذه الجذوة بل ظل على ولائه للخلافة والترك ولم تنقطع بينه وبينهم الصلة الذهنية أو الروحية يوما . فالأحداث الهامة التى ظهرت فى حياة الدولة العلية بعد أن وضعت الحرب الماضية أوزارها أطلقت شاعرية شوقى بقصائد تعتبر بحق من فرائده الفنية . ولن ينسى التاريخ لشوقى ذلك الولاء المقيم للخلافة الذى أبداه

فى قصيدته التى رثاها بها حين أعلن الغازى الغاءها والتى ضمنها خلاصة الأسى واللوعة والتى جاء فيها :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونُعيت بين معالم الأفراح
كُفِّنْت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
ضجَّتْ عليك مآذنٌ ومنابر وبكت عليك ممالك ونواحِ
الهندُ والهة ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحَّاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟
وأتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأتما فقعدن فيه مقاعد الأنواح
يا للرِّجالِ لحـــرة موءودة قُتلت بغير جريرة وجُناح

هذا شوقى يرسل عبراته فى أسى وحسرة عند ماحل القضاء بالخلافة العثمانية . . . وكان لابد لحادث كهذا أن يثير كل من كان له صلة مباشرة أو غير مباشرة بآل عثمان من شعراء . . . لا بل كان لابد له أن يثير ليس عاطفة كل فرد يهتم بمستقبل الاسلام والشعوب الاسلامية بل وتفكيره أيضاً . . . ألم يكن من الغريب أن يلتزم حافظ الصمت التام ليس حيال هذا الحادث بالذات بل وحيال الاحداث الهامة الأخرى التى تلته ؟ !

إن هذه الظاهرة من شأنها أن تفصح لنا عن طبيعة تلك الروح التركية التى عهدناها فيه والتى أفصحنا بعض الشىء فى تبيانها ؛ فهذه الروح لم تكن متأصلة فى نفسه كما كانت الحال عند شوقى . ويلوح لنا أنها لم

تكن تستند إلا إلى العلاقة السياسية أو الدينية التى كانت بين مصر وتركيا . . . فعند ماقُصمت هذه العلاقة السياسية بإعلان الحماية لم يعد لتركيا فى وجدان شاعرنا مكانتها السابقة . ولم لانقول إنه لم يكن فى وسعه بعد هذا الانقلاب ان يظهر شيئاً من تركيته القديمة فى الشعر وهو آنئذ الموظف بدار الكتب ، والوظيفة تفرض عليه قيوداً ثقيلة من الولاء للنظام القائم وتجنب مامن شأنه أن يثير الشكوك حول ميوله السياسية فى تلك الآونة العصيبة . ومن الإنصاف للحقيقة أن نقول إنه لم يكن فى وسع غيره من الشعراء أو الكتاب ممن توفرت لهم أسباب الحرية الشخصية أن يقفوا موقفاً بعيداً فى جوهره عن موقفه هو . . . وهذا شوقى نفسه لم يستطع أن يعود إلى الضرب على الأوتار التركية من قيثارة شعره الا بعد أن هدأت عاصفة الحرب وبدأت العلاقة بين الاتراك والحلفاء تستقر وتهدأ و بدأت وطأة الحماية تخف بزوال مقتضياتها.

ولكن الذى يسترعى نظرنا مع هذا أن حافظا لم يعاوده الحنين الى الترك حتى فى هذه المرة . . . فسكونه عنهم ذلك السكوت المطلق هو الذى يجعلنا نفرق بين الروح التركية عنده و بينها عند شوقى ، فهى عند هذا الأخير تستند الى دعامة قويه من وحدة الجنس لأنه ينحدر من أبوين تركيين عريقين بخلاف حافظ الذى كان أبوه مصريا وان تكن أمه ترجع إلى أصل تركى ، فشوقى كان يتصل بالأتراك اتصالا روحياً لاتزعزع منه مايطرأ على البلدين من التغييرات السياسية . أضف إلى هذا أن صلة شوقى بدار الخلافة و بالبيت العلوى كانت صلة وثيقة

من شأنها أن تدعم هذه الروح عنده وتقويها ، وهذه أمور لم تتوافر لحافظ كثيرا .

٧

وحافظ ابراهيم الى جانب مصريته وإلى جانب ميله إلى الترك مؤمن ايمانا قويا صادقا « بالوحدة العربية » أو قل بالجامعة الشرقية ، فهو يرى أن شعوب الشرق القريب أن هى إلا أسرة واحدة تجمع بينها وحدة اللغة والثقافة ووحدة الشعور والأمانى ، ما يصيب أحدها من عز أو ذل من مجد أو هون أن يصيب سائرها ويؤثر فيها جميعا .

والدعوة إلى الجامعة الشرقية دعوة قديمة ظهرت وبدت آثارها قبل أن يولد حافظ ، وهى فى حد ذاتها نزعة طبيعية توحى بها الصلة الثقافية بين شعوب الشرق القريب . . . تلك الصلة التى تتمثل فى اللغة العربية وتسهل من أمرها وحدة الدين أو تقارب الأديان التى تسود هذه الشعوب وتدعمها إلى جانب هذا الوحدة الجغرافية فهى تقع جميعا فى حوض البحر المتوسط تعمل على ربطها وسهولة الاتصال بينها من قديم الطرق البرية والبحرية . وإلى جانب هذا كله كانت الوحدة السياسية أو مظهرها على الأقل ممثلة فى الخلافة العثمانية تجمع بين هذه الشعوب فى وحدة سياسية عامة .

إلا أن النصف الأخير من القرن التاسع عشر شهد عوامل واتجاهات سياسية كان من شأنها أن تثير كوامن هذه الدعوة فى بلدان الشرق القريب عامة وفى مصر بنوع خاص . ويمكننا أن نذكر على رأس هذه

العوامل نشاط الدعوة إلى الجامعة الصقلبية التي كانت ترمى إلى جمع الشعوب البلقانية تحت زعامة روسيا — وكان بينها وبين تركيا عداء تقليدى كما هو معروف — وتحريرها من نير السلطان العثمانى . فالدعوة إلى الجامعة الشرقية كانت تعتبر إلى حد ما رداً على هذه الدعوة الصقلبية .

وكان الروح التسلطية التى سادت الدول الأوربية الكبرى فى ذلك العهد أثر واضح فى نشاط الدعوة إلى الجامعة الشرقية ... ذلك أن هذه الدول وجدت فى أملاك السلطان فريسة سهلة لأطماعها ؛ وتكشفت نواياها فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ الذى عقد لتسوية مشاكل الدولة العلية فى البلقان ؛ فبدت منذ ذلك الحين الحقيقة سافرة وهى أن السياسة الأوربية التى كانت قائمة على الدفاع عن الدولة العلية كقوة ضرورية للتوازن الدولى فى بداية هذا القرن أصبحت فى السنوات الأخيرة منه قائمة على تمزيق أوصالها والاستيلاء على أجزائها الواحدة بعد الاخرى فنرى انجلترا تضع يدها قبل انعقاد المؤتمر على جزيرة قبرص وروسيا تستولى على أجزاء من أملاك الدولة العلية الواقعة على البحر الأسود ؛ وتعترف الدولة باستقلال رومانيا والصرب وفى السنة التالية لعقد هذا المؤتمر بدأت فرنسا تفكر فى احتلال تونس وتم لها هذا الاحتلال سنة ١٨٨١ فكان هذا إيذانا بتنفيذ سياسة إنجلترا فى مصر فى العام الذى يليه كوسيلة لحفظ التوازن الدولى فى البحر المتوسط .

كانت شعوب الشرق القريب ترى إذن هذا الخطر الماثل الذى يهدد كيانها من جانب الدول الأوربية ورأت كل منها مصيرها المحتوم ؛

فكان من الطبيعى أن تتجه هذه الشعوب التى كانت تتعلق بالأمانى الحلوة للحياة السياسية المستقلة نحو الدعوة إلى التضامن ضد هذا الخطر المشترك .

جاء شاعرنا والجو مايزال مشبعا بآثار هذه الدعوة ، جاء ومازال هذه الشعوب تتعلق بها وترددها كوسيلة للاحتفاظ بكيانها السياسى والقومى .. وإلى جانب هذا نستطيع أن تذكر ماكان لحرب طرابلس حين أغارت إيطاليا على هذه الولاية العثمانية فى سبتمبر سنة ١٩١١ واقتطعتها من جسم السلطنة العثمانية وما تبع ذلك من ثورة الولايات البلقانية وخروجها من السيادة العثمانية الواحدة تلو الاخرى من أثر فى أثارة كوامن الشعور بالحاجة إلى الجامعة الشرقية والدعوة اليها ... لهذا كله كان من الطبيعى أن يعبّر حافظ بشعره عن هذه العاطفة السياسية والقومية التى كانت مسيطرة إلى حد كبير على وجدان العصر الذى كان يعيش فيه .

٨

على أن للدعوة إلى الجامعة الشرقية عند حافظ ابراهيم خصائص تكاد تنفرد بها وتتميز عن مثل هذه الدعوة عند غيره من المصريين والشرقيين . « فشرقيته » وإن كانت قوية صادقة فإنها لم تبعث « بمصريته » فهو يشيد بمصر إلى جانب إشادته ببلدان الشرق .. ولم يسلك مسلك البعض الذين قد تطغى عليهم العاطفة الشرقية إلى حد ينسون معه مصر نسيانا ... بل مصر كانت لها المكانة الأولى الممتازة عنده فهو يصرح

غير مرة بأنها زعيمة الشرق فتراه يقول على لسانها

أنا تاجُ العلى فى مَفرق الشر ق ودُرَّاتُه فرائدُ عِقدى
أنا إن قدر اللهُ مماتى لا ترى الشرقَ يرفعُ الرأسَ بعدى

وهو فى تهنئته المغفور له الملك فؤاد الأول يرفع من مكانة مصر بين الدول الشرقية فيقول فى صراحة تامة :

أىُّ الملوك أجلُّ منك مكانةً وأعزُّ جُندا ؟
من منهمُ كفّاهُ يو مَ البذل من كفيك أندى ؟
من منهمُ نامتْ رعيته وقامَ الليلَ سُهْداً ؟
من منهمُ ساماكَ أوْ سامى حلاكَ أو تحدّى ؟
من منهم أوفى حجاً وحصافةً وأبرُّ وعدا
فى الشرق فانظرْ هل ترى حسبا (كإسماعيل) عدّا ؟
هذى (الجزيرة) و (والعرا قُ) و (فارس) يهذون هذا
واليك (مكة) هل ترىَ أحداً بها واليك نجدا
واليك (تونس) و (الجزا ئر) قد لبسن العيشَ نكدا
لم يرتفع فى الشرق تا جٌ فوق تاجِ النيل مجدا

ولكن يجدر بنا مع هذا ألا نخطىء فى فهم الروح التى أملت على الشاعر هذه الأبيات فهو لم يقصد إلى شىء من الزهو أو الخيلاء على الأمم الشرقية ، ولم يهدف إلى نوع من التحدى أو التنافس فى الفخر ... لم يكن فى الأمر شىء من هذا البتة فالمسألة لا تخرج عن اعتزاز الأخ

الأكبر بأخوته وصدارته على أخوته . ولا يغيب عنا أنه كان في موقف التهنئة يزجيها إلى ملك عظيم فازت البلاد على يديه بكيان سياسي ودولي لم يكن لها من قبل . وكان الشاعر يرى هذه البلاد التي عددها ولم تستقر فيها الأمور بعد الحرب الماضية ، فقد كانت في حال من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار ... كان يراها آنئذ ومايزال كيانها السياسي متردداً بين الحماية والانتداب ، فكان هذا مما بعث في نفسه شعور الأعتزاز بمصر والزهو بعرشها وتاجها ...

نقول هذا لأن الشاعر صادق الأيمان أصلا بالأخاء القائم بين الشعوب العربية وهو ماعبر عنه شعره في مواضع عدة لعل من أقواها وأوضحها ماجاء في قصيدته التي حيا فيها الشام في حفلة تكريمه :

لي مَوْطِنٌ في ربوع النيل أعْظِمُهُ ولي هنا في حماكم مَوْطِنٌ ثاني
إني رأيت على أهرامها حُللاً من الجلال أراها فوقَ لُبْنانِ

ومن خلال هذه الأبيات تبدو لنا خاصة من خصائص دعوته إلى الجامعة الشرقية هي اقتسام المجد وشيوعة بين سائر البلدان الشرقية فمجد الأهرام يكلل هام لبنان وكلا المجدين تراث لشعب واحد بل لأسرة واحدة . ويدعم هذا المعنى بيتان هما بلاشك من أحسن ماقال في الوحدة الشرقية :

إذا ألمَّت بوادي النيل نازِلةٌ باتتْ لها راسياتُ الشامِ تَضْطَرِبُ
وَإنْ دعا في ثرَى الأهرام ذو ألَم أجابه في ذُرَا لُبنانَ مُنْتَحِبُ

فهو يرى فى أمم الشرق هيئة واحدة تتداعى عواطفها فى الملمّات التى تنتاب أحد أعضائها ، ولعل ماجاء فى رثائه للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مايزيد فى هذا وضوحاً :

بكى الشرقُ فارتجّتْ له الأرض رَجّةً
وضاقتْ عيونُ الكَونِ بالعبراتِ
فَفى الهندِ محزونٌ وفى الصين جازعٌ
وفى مصر بــــاكٍ دائم الحسراتِ
وفى الشام مفجوعٌ وفى الفرس نادبٌ
وفى تُونُسٍ ماشئْتَ من زفراتِ

٩

وكان طبيعيا والحالة هذه أن تستجيب نفس شاعرنا إستجابة صادقة لما يحل ببلدان الشرق من نوائب ويتألم لمايقع بها من مصائب ... وخير مثال لهذا ماقاله فى حرب طرابلس سنة ١٩١٢ فتراه يندّد بمطامع إيطاليا الأستعمارية وبما أقترفته الجيوش الإيطالية من فظائع . فخالفوا المسيحية وما تدعو اليه من محبة وسلام ولم يراعوا مبادىء القانون الدولى وآدابه :

احرقوا الدّوُرَ استحلّوا كلّ ما حرّمتْ (لاهاى) فى العهدِ احتراما
باركَ المطرانُ فى أعمالِهمْ فَسَلُوهُ باركَ القومَ علا ما ؟
أبهذا جاءهُمْ إنجيلهُم آمرا يُلقى على الأرضِ السلاما ؟

كشفوا عن نيةِ الغرب لنا ... وجلَوْا عن أفُقِ الشرقِ الظلاما

فأنت ترى أن عين حافظ إبراهيم لم تغفل عن أحداث الشرق ونوائبه . وإذ قد ساقنا الحديث إلى ذكر حرب طرابلس فأنى حريص على أن أورد للقارىء شيئاً من قصيدته فيها لما بها من طرافة ... أعلنت إيطاليا الحرب فى سبتمبر سنة ١٩١١ أو قل أعلنت ضمّ هذا الجزء من املاك الدولة العلية اليها ، وعجب شاعرنا كيف تعلن دولة إستيلاءها على أراضى دولة أخرى دون ما حرب أو قتال فيقول

أعلنُوا ضمَّ مغانينــا الى ... مُلْكِ (فيكتور) ولم يَخشَوْا مَلاما
اعلنُوا الضمَّ ولمَّا يفتحوا ... قيد أظفورٍ وراءً أو أماما
فاعجَبُوا من فاتح ذى مِـرَّةٍ ... يحسبُ النُزْهةَ فى البحر صداما
ويرى الفتحَ ادعاءً باطلا ... وافتراءً واحتجاجاً واحتِـكاما

حقيقة أن إيطاليا نجحت اخر الأمر فى الإستيلاء على طرابلس ولـكن ذلك لم يـكن فى الواقع نتيجة انهزام الترك فى الحرب انهزاما حاسماً بل لأن تركيا كان عليها أن تنهى مسألة طرابلس على وجه السرعة فأرغمت على النزول عن هذه الولاية فى معاهدة لوازن سنة ١٩١٢ لأن الترك كانوا على أبواب حرب جديدة تنذر بتمزيق سلطنة آل عثمان ... ذلك أن البلقان كان قد هالته بوادر التقدم ومظاهر الحياة التى أخذت تدب فى تركيا على يد رجال الأتحاد والترقى ، فرأت دُوَله أن تتعاهد على الحرب ضد ها كى تفوز برفع مظاهر السيادة التركية عن كاهلها ...

فضياع طرابلس والحالة هذه كان نتيجة ضرورات سياسية أكثر من أن تكون نتيجة هزيمة حربية حاسمة ... لا بل الثابت أن الترك والعرب صمدوا للحملة الايطالية التى نزلت إلى شواطىء طرابلس فى ٢٦ سبتمبر فنازلوها منازلة هى مضرب الأمثال فى الشجاعة والثبات والتضحية وقوة البأس وكبّدوا الطليان خسائر فدحة واضطروهم فى بعض المواقف إلى التقهقر والأرتداد ... ولاجرَم أن مثل هذا النصر على عدو باغ بادىء بالعدوان كان له دوى فى بلدان الشرق عامة وفى مصر بصفة خاصة. ولقد أطلقت هذه الحوادث شاعرية حافظ بقصيدة فيها الشىء الكثير من الطرافة والتهكم المرير والسخرية اللاذعة نذكر للقارىء شيئا منها

خبّروا (فيكتورَ) عنّا إنّه ... أدهشَ العالَمَ حربا ونظاما
أدهشَ العالَمَ لما أن رأوْا ... جيشَهُ يسبِقُ فى الجرى النَّعاما
لم يقِفْ فى البرِّ الا ريْثما ... يُسلِمُ الأرواحَ أو يُلقى الزِّمام
حاتمَ الطليان قد قلّدتنا ... مِنّةً تذكُرُها عاماً فعاماً
انت أهديْتَ الينا عُدّةً ... ولباساً وشرابا وطعاماً
وسلاحاً كان فى أيديكُمُ ... ذا كلالٍ فغدا يفرى العظاما
أكثِرُوا النُّزهةَ فى احيائنا ... وربانا إنها تَشفى السِّقاما
وأقيموا كلَّ عامٍ موسِماً ... يُشبِعُ الايتامَ منا والأيامى
لستُ أدرى بتَّ ترعى أمةً ... من بنى الطّليان أم ترعى سَواما

١٠

ولن يفوتنا ونحن نعرض خصائص الوحدة الشرقية عند حافظ أن نشير إلى خاصة لها خطره، ولها سامى مغزاها . . . ذلك أن هذه الوحدة فى نظره تضم الشرقيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وهى « شرقية » بعيدة المدى « جامعة » حقا ؛ ولم يخلط شاعرنا بين الوحدة الدينية والوحدة الجنسية أو الثقافية أو على أصح تعبير وحدة الحضارة . . . . قد يدعو البعض الى الجامعة الشرقية فيعنى وحدة الأمم الاسلامية ويخرج غيرهم ممن هم شرقيون يختلفون فى الدين ولكنهم يجتمعون فى الوطن العام : تجمعهم رابطة الثقافة ووحدة الأمانى والآمال : فيجعل بهذا أساس دعوته الوحدة الدينية . . . وهذا خلط لم يقع فيه حافظ : فشرقيته من هذه الناحية شرقية عامة لاتحدّه فواصل الدين أو المذهب . ولقد ظهرت هذه الخاصية بشكل واضح فى منظومته التمثيلية التى وضعها عند ضرب الأسطول الطليانى مدينة بيروت أثناء حرب طرابلس انتقاماً من الأتراك فقد توجّه شاعرنا إلى المطران مسرّة الذى كان يعنى بالجرحى

(مَسَرَّةَ) الشام إنا إخوانكُم ماحيينا
ثِقوا فأنا وَثِقنَا بكمُ وجئنا قطينَا
إنّا نرى فيك عيسى يَدْعو إلى الخَيرْ فينا
قرّبتَ بين قلوبٍ قد أوْشكَتْ أن تَبِينا
فأنت فخر النصارى وصاحب المُسْلِمِينَا

ويؤكد هذا الإتجاه عنده ماجاء فى قصيدته التى يمدح فيها السلطان عبد الحميد :

يرعى لموسى والمسيح واحمد	حق الولاء وحرمة الاديان
نخذ والمواثق والعهود على هدى ال	توراة والانجيل والفرقان

وقوله :

تحالف فى ظل الهلال أمامه وحا	خامه — بعد الخلاف — وراهبه

على أن شاعرنا يسرف إسرافا واضحاً فى مدى الوحدة الشرقية حين يحاول أن يضم فى عقدها الشرق الأقصي إلى جانب الشرق الأدنى وإن شعره يجرى أكثر من مرة بذكر الصين واليابان ، ويتمنى أن تنتظم جميعا فى وحدة غير مفصومة العرى .

متى أرى الشرق أدناه وأبعده	عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجرى المودة فى أعراقه طلقاً	كجرية الماء فى اثناء أفنان
لافرق مابين بوذى يعيش به	ومسلم و يهودى ونصرانى

وقد يكون من حقنا بل من الواجب علينا أن نلاحظ أن هـذا المدى الذى بلغته الجامعة الشرقية عنده وتمسه للشرق الأقصى من صين ويابان ، وأمنيته أن يعيش البوذى مع اليهودى والمسلم والنصرانى هى أمور صناعية لاتجد أية دعامة قوية من العلائق الطبيعية والثقافية التى تبدو بوضوح بين بلدان الشرق الأدنى أو بالأحرى الشرق العربى

كسوريا ولبنان والعراق وتونس ومصر وما اليها .. نعم لانجد مبرراً قوياً لهذا التحمس الياباني البوذي اللهم الا إذا تلمسناه في نهوض اليابان وانتصارها في حرب سنة ١٩٠٤ على روسيا ، ثم ذكرنا إلى جانب هذا - بل وقبل هذا — قصة غادته اليابانية التي كان قد أُعجب بها والتي قال فيها قصيدته الممتازة بحق وفي صفُرة هذه الغادة التي « تُنسي اليهودَ الذهبا » ...

١١

وحافظ ابراهيم في شرقيته كان يشفق على الشرق وكان ينعى عليه تأخره ويتمنى أن يرى الشرق وقد خلع عنه رداء التأخر ويهيب به أن يعمل جادا على استرداد عظمته ومجده . فدعوته إلى الجامعة الشرقية كانت دعوة ممتزجة بالناحية العملية ولم تكن بمقصورة على التغني بأمجاد الشرق .. هي دعوة صريحة قوية إلى تلمّس أسباب المجد الحقيقي التي لاتقف عند حد إيقاظ الأماني والآمال أو عند حد ترديد النغمة الجوفاء بالأيام الخالية والعظمة الغابرة ؛ فهو لايذكر المجد المفقود بقدر مايذكر المجد المأمول . ومن ذلك مايقول على لسان جريح ببروت في منظومته :

يَاليتني لم أُعَاجَلْ بالموتِ قبلَ الأوانِ
حتى أرى الشرقَ يسْمُو رَغْم اعتداء الزمانِ
ويَستردُّ جلالاً له ورفعةَ شانِ

. . . .

وسوفَ تقضي عليهم طبائعُ العمرانِ
فيُصبحُ الشرقُ غربا ويَستوي الخافقانِ

وهو لا يكتفى بهذا بل يحاول أن يرسم للشرق السبيل العملى للنهوض فاذا به يراها فى الأخذ بأساليب المدنيَّة الغربية .. ومن هنا فانه لم يكن متعصبا لشرقيته تعصبا أعمى يقف به عند حد المباهاة بمظاهر العظمة التى كان عليها الشرق فى غابر الزمان ، تلك النغمة التى اعتاد ترديدها بعض الدعاة الى الوحدة الشرقية ، ولم يكن متعصبا لشرقيته تعصبا يبلغ به إلى حد احتقار المدنية الحديثة والحط من قدرها . فهناك قوم يفصلون خطأ الحضارة الإنسانية إلى شرقية وغربية ، ثم يحلو لهم دائما أن ينظروا إلى الأولى نظرة اعجاب ويدَّعوا أنها أسمى من الثانية وأرقى ويذهبون إلى أن تأخر الشرق إنما يرجع سببه إلى تقليده الغرب واصطناعه مظاهر حضارته . وهم إذا واجهوا مظهراً من مظاهر الضعف أو الانحراف فى حياتنا الاجتماعية تراهم ينفجرون بالقول إنها حضارة الغرب الزائفة التى انسقتم اليها . ألا رحمة الله على الأيام الخالية التى لم نكن نعرف فيها ماعرفنا .. ألا ليتنا نرتد اليها ، ان الاحتفاظ بشرقيتنا وحضارتنا فيه كل الخير وكل السلامة ..

أما شاعرنا فقد كان بعيداً عن هذا كل البعد ، كان مؤمناً بقوة التطور الاجتماعى ، كان يأبى أن يستسلم الشرق الى الجمود بينما يسير العالم المتمدن بخطى واسعة فى موكب الحضارة .. لهذا تراه يدعو الشرق

فى صراحة إلى أن يقتدى بأمم الغرب ويقتفى آثارها فيقول فى قصيدته «رجال الدنيا الجديدة» :

لَيتنا نَقْتَدِى بكم أو نُجاريكُم عسى نستردُّ ما كانَ ضاعاَ

. . . .

كاشفَ الكهرباء ليتكَ تُغنِى باختراعٍ يروِّضُ منا الطباعاَ

آلةٍ تَسحقُ التواكلَ فى الشرْقِ وتُلقِى عن الرياء القِناعا

قد مَلِلْنا وقوفَنا فيه نَبكى حَسَباً زائلاً ومجْداً مُضاعاً

وسَئِمْنا مقالَهم كان زَيْدٌ عبقريّاً وكان عمرٌو شجاعاً

وفى موضوع آخر يقول : مدرسة مصطفى كامل

فَدَيْناكَ ياشرقُ لاتجْزَعن إذا اليومُ وَلَّى فراقِبْ غدا

أَتشقى بعهدٍ سَمَا بالعلومِ فأضحى الضعيفُ به أيِّدا ؟

زمانٌ تُسَخرُ فيه الرياحُ ويغدو الجمادُ به مُنْشِدا

وتعنو الطبيعةُ للعارفينَ بِمَعنى الوجودِ وسرِّ الهُدى

اذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ وقامَ البُخارُ له مُسعِدا

وطارَتْ إليهم من الكهْرَبا

ءِ بروقٌ على السلكِ تطوى المدى ؟

أيجمُلُ من بعد هذا وذاكَ بأنْ نستكينَ وأنْ نجمُدا

وفى الأبيات الآتية نراه يسخر بشكل واضح من نزعـة البعض الى التغنى بالماضى والمبالغة فيه ؛ داعيا الى التجديد فى الحياة ... التجديد النافع المفيد :

ملأْنا طِباقَ الأرضِ وَجْداً ولوْعةً
بهـنْدٍ ودَعْـدٍ والرَّبابِ وبَوْزَعِ

وملَّتْ بناتُ الشعر منَّـا مواقِفاً
بسَقْطِ اللوى و (الرقْمَتينِ) و (انْعَلَعِ)

. . . .

عَرفْنا مدىَ الشىءِ القديمِ فهل مَدى
لشىءٍ جديدٍ حاضرِ النفعِ مُمتعِ

لَدَى كل شعْبٍ فى الحوادثِ عُدَّةٌ
وعُدَّتُنا نَدْبُ التراثِ المُضَيَّعِ

فأنت ترى من كل هذا أن الدعوة الشرقية عنده كانت دعوة إلى البناء والى العمل الجدى فى سبيل الرقى حتى يرتفع بأمم الشرق الى مدنية العصر ؛ مدنية العلم والاختراع ... ولعمرى إن هذا هو الطريق السوى الذى توحى به العاطفة المقترنة بالعقل والحكمة والروية ... بمثل هذه الروح وحدها يستطيع الشرق أن يساير التاريخ وأن يسترد شيئا من مكانته ... أما أن تقتصر الدعوة الى الجامعة الشرقية على العاطفة

الجامحة أو على التحمس العنيف وحده دون كدّ أو عمل أو كفاح فضرب عقيم من الجمود والمكابرة يبدو أن شاعرنا لم يكن يقره أو يميل إليه ؛ ومما يشهد بهذا شهادة جلية ما جاء فى محاورته مع خليل مطران :

قعدت شعوبُ الشرقِ عن ... كَسْبِ المحامدِ والمفاخرْ
فونت وفى شرع التنا ... حرِ مَن وَنى لاشك خاسر
تمشى الشعوبُ لقصدِها ... قُدُما وشعبُ النيل آخرْ
كم فى الكنانةِ من فتىً ... ندْبٍ وكم فى الشامِ قادِرْ
هـذا يطـير مع الخيـال ... وذاك يرتجـل النوادر
جهِلُوا الحياةَ وما الحيـاةُ ... لغَيرْ كدَّاحٍ مغامرْ
يجتـابُ أجـوازَ القفار ... ويمتطى مَتْنَ الزواخـرْ

١٢

لننتقل بعد أن تناولنا هذا الجانب العام من شعر حافظ السياسى الى السياسة فى مجالها الخاص الضيق ... الى آرائه وخطراته ومبادئه فى حياة المصريين الاجتماعية وفى الأحداث المصرية التى تتصل بشئون الحكم وأمور الدولة . ولحافظ فى هذا مجالات واسعة وقدم راسخة جديرة بشخصيته القوية التى اتصلت اتصالا وثيقاً بالحياة السياسية لبلاده نتبينها بسهولة ووضوح خلال شعره السياسى .

ولكن قبل أن نتناول هذا بشىء من التحليل لابد لنا من كلمة

لا غناء عنها عن العصر الذى نشأ فيه الشاعر وعن العوامل التى تفاعلت فى نفسيته حتى صبغت آراءه السياسية ومذاهبه ونزعاته . نعم فهذا أمر ضرورى كى تبدو شخصيته السياسية واضحة لا لبس فيها ولا غموض ✱ لا يهمنا العام الذى ولد فيه حافظ على وجه التحقيق ؛ وحسبنا أن نعرف أنه كان يافعاً أثناء الثورة العرابية وأنه دخل المدرسة الحربية وهو فى شرخ الصبا بعد أن وضعت هذه الثورة أوزارها وانتهى بها الأمر إلى الفشل الذريع ودفعت مصر إلى براثن الاحتلال . وعلى هذا فحافظ وإن يكن قد فاتته حوادث الثورة ذاتها فإنه شهد بجلاء آثارها القريبة وشهد نتائجها التى أثرت فى مجرى التاريخ السياسى لمصر تأثيراً كبيراً فى السنين التى تلتها إلى وقتنا الحاضر .

هُزمت الجيوش العرابية فى موقعة التل الكبير . ومن الخطأ أن نعتبر هذه الهزيمة مجرد هزيمة حربية فهى كانت قبل ذلك هزيمة قومية ، فقد عمد العدو إلى أسلوب التفرقة فى الصفوف فاجتذب إلى جانبه طائفة المستضعفين من الأمة ومن الجيش نفسه . . بل إنه استطاع أن يحمل تركيا على إعلان عصيان عرابى وأعوانه . ولما دخلت جحافل العدو القاهرة ووضع يده على ناصية الأمور كان المحتلون يواجهون أمة متخاذلة فقدت روحها المعنوية وشعباً ممزقاً تعوزه الزعامة المخلصة الرشيدة .

ولم تكد الأمور تستقر بهؤلاء المحتلين حتى عمدوا إلى التنكيل بزعماء الحركة وبكل من حامت حوله شبهة الاشتراك فيها أو العطف عليها ؛ فخيمت على البلاد روح اليأس والذهول والاستسلام والاستكانة ؛

ناهيك بما تردّى إليه بعض ذوى المكانة والصدارة من التملق إلى رجال الاحتلال والتقرب اليهم والسير فى ركابهم .

إلا أن هذه الحالة لم تطل ولم يكن لها أن تطول ، فلقد توفرت عوامل عدة كان من شأنها أن تبعث روح النشاط والحياة فى هذه الأمة من جديد . فنحن نذكر تصدى فرنسا للنفوذ البريطانى فى مصر ؛ ونذكر تبرم تركيا بطول بقاء الجيوش الانجليزية فى بلاد كانت تعتبرها تابعة لها . وصاحبَ هذه العوامل الخارجية عوامل أخرى داخلية لعل من أهمها تولى الخديو عباس السلطة بعد وفاة والده : فلم يكد يتربع على الأريكة الخديوية حتى بدأ سياسة مقاومة الاحتلال أو بالأحرى مماكسة رجاله الذين ألفوا من الخديو السابق كثيراً من الخضوع والاستسلام . فعمد عباس الى اقالة وزارة مصطفى فهمى الموالية للانجليز واحتك بهم ثانية فى استعراض الجيش على الحدود . .وقد قابلت الأمة سلوك ولىّ الأمر هذا بكثير من الإعجاب والتأييد . ونحن نحب هنا أن نحذر من المبالغة فى حركة الخديو عباس هذه فهو فى الواقع لم يلق نجاحاً كبيراً : بل إنه أصيب فعلا بالخذلان فى هذين العملين بالذات ؛ فقد انتهى الأمر فيهما باقرار سيادة الانجليز والأخذ بوجهة نظرهم وإن شئت بتنفيذ أوامرهم ؛ وسرعان ما شعر الخديو أنه ركب مركبا صعبا محفوفا بالمخاطر فتنكب لمسلكه وأخذ ينسحب أمامهم أو نحوهم انسحابا منظما حتى سار معهم فى أمان ووفاق .

ولكننا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن نهوّن من أثر خطته هذه

فقد كان عمله إيذانا ببدء حركة مقاومة الاحتلال ، تلك الحركة التي أخذت تتسرب الى وجدان الأمة السياسي وأخذت تنمو وتزدهر وتنظم حين تعهدها وبعث فيها من روحه زعيم الوطنية في مصر مصطفى كامل باشا الذي يعتبر شخصية الجيل السياسية بلا منازع . ذلك الزعيم الذي علّم العالم كيف تبعث روح الحرية في الأمم من جديد ؛ فقد انبثق على يديه شعاع الأمل نافذاً في أحلك ساعات اليأس والقنوط . فلقد كانت مقاومة الاحتلال والمناداة بالجلاء تكاد تكون عند القوم خيالا أو وهماً فاذا بها تصبح حقيقة ملموسة ليس الى إنكارها من سبيل ؛ أخذ مصطفى كامل يتحدى بحقه أو بحق مصر قوة المحتلين وسياستهم بكل الوسائل ، من نشر التعليم الى الخطابة إلى الدعوة لمصر في الخارج إلى الصحافة ؛ فكانت هزة عنيفة أفاقت بها الأمة من سباتها وتهيأت للعمل القومي والجهاد الوطني ؛ فقوي الرأي العام وزاد نفوذه وأصبح مسيراً الى حد ما لمجرى السياسة في مصر . فلم يكن العصر الذي نشأ فيه شاعرنا والحالة هذه عصر ركود سياسي بل كان يتميز على العكس من هذا بكثرة الاحداث السياسيه المتعاقبة وبالنشاط المتزايد الذي يزداد قوة وتنظيما . وكان من شأن هذه العوامل أن تدفع الرجل منذ شبابه الأول الى الاهتمام بها فنشأ صنوا للسياسة وقرينا لها .

وهو لم يكن متفرجاً عن بعد على هذه السياسة بل كان وثيق الصلة بها ... دخل الجيش منذ شبابه الباكر ، وسواء كان دخوله الجيش تحت

ضغط الحاجة ورغبة منه فى الحصول على الاستقرار المعاشى الذى كان يحرص عليه أشد الحرص أو كان رغبة منه فى خدمة الوطن عن طريق الجندية فمما لا ريب فيه أن اتصاله بالجيش جعله يشرف بنفسه على التيارات السياسية فى عصره ومهد له وسائل الصلة بالشخصيات التى كانت تمثل الأدوار الهامة على مسرح السياسة المصرية فى هذا العهد... وكل هذا كان من شأنه أن يكسبه نظراً صائباً سليما إلى المسائل السياسية فهو حين يتكلم عنها فإنما يتكلم كلام الخبير العارف بأسرارها المكتنه لغوامضها . فاذا ذكرنا إلى جانب هذا اشتغاله بالصحافة حينا واتصاله بشخصيات عصره كالأستاذ الامام وسعد زغلول ومن اليهما من أقطاب السياسة عرفنا بجلاء أن شخصيته السياسية كانت مكونة تكوينا قويما الأمر الذى هيأه لأن يكون شاعراً سياسياً من الطراز الأول .

إلى جانب هذا يجب أن نذكر أن رجلا كحافظ نشأ فى بيئة مصرية صرفة ونشأ مندمجاً فى المجتمع متصلا اتصالا وثيقاً بالشعب المصرى لابد وأن يكون على معرفة تامة بالتيارات التى تتجاذبه والأمواج التى تتدافعه ، فكان بهذا أقرب شعراء عصره إلى الوجدان القومى وأقدرهم على التعبير عما يخالجه من إحساسات وما يجيش به من آمال واتجاهات

ولكن هناك إلى جانب هذه العوامل التى تضافرت على خلق شخصيته السياسية عاملا آخر له أثر ليس بالحسن فى هذه الشخصية ... ذلك أنه أمضى جل سنى حياته موظفاً فى خدمة الحكومة ، ومن الثابت

أنه كان يسعى إلى هذه الخدمة سعياً حثيثاً لأنه كان ينشد فيها شيئاً من الاستقرار والاطمئنان إلى المستقبل ، فكان لزاماً عليه أن يحرص على وظيفته الحكومية وأن يتجنب مامن شأنه أن يزحزحه عنها . . . تلك حقيقة بارزة يكفى مجرد الإشارة اليها كى نتمس أثرها واضحاً فى شعره السياسى ، فقد طبعته بطابع الحذر والوجل والاعتدال فى كثير من الأحيان . فهو من هذه الناحية لم يكن شاعر كفاح عنيف لايهاب ولا يخشى بل كان حذرا بعيداً على الجملة عن الثورة السافرة فى القول أو العنف الشديد فى التعبير .

على أننا نظلم حافظا أيما ظلم اذا ضخمنا هذا العامل ذا الأثر البين الواضح . وحقيقة الأمر فى هذا أن وجدانه كان ميدانا لصراع عنيف بين الحرية فى القول والجهر بما قد يغضب منه السلطان مما يهز عرش وظيفته ويقذف به إلى لجة الحياة التى لايقوى على مكافحتها ، وبين كتمان هذه النزعات التى قد تغضب منه السلطان ، ونعنى بالسلطان هنا ذوى النفوذ والسطوة وقد كانوا فى مصر كثيرين من المصريين والانجليز . . . نقول إن الوظيفة لم تطفىء جذوة السياسة فى نفس شاعرنا اطفاء ، بل ولم تفسدها أو تدفعها إلى شىء من الانحراف . وكل مافعلته أنها جمعته إلى الاعتدال أدنى . . . جمعته يتجنب العاصفة ويحتال فى كفاحه من أجل آرائه السياسية والتعبير عنها . وهو حين لايجد مجالا للتوفيق بين قيود الوظيفة وبين نزعته إلى الحرية فى القول نراه لايتردد فى الاختفاء والتنكر : وخير مثل لهذا القصيدة التى نشرها فى أحد

المنشورات سنة ١٩١٩ منددا بهجوم الجنود على مظاهرة السيدات .

ونحن فى استطاعتنا برغم هذا ان نتلمس لحافظ عذراً فى هوادته الواضحة فى بعض شعره السياسى ؛ فالهوادة كانت عند بعض المصريين أنفسهم مبدأ سياسياً مقرراً . وهو حين يدعو إلى التعاون مع السلطة البريطانية فى بعض الحالات كما سنرى بعد كان على الأقل معبّراً عن رأى أخذ سبيله إلى المشتغلين بالسياسة آنئذ . وحسبنا أن نذكر أن التعاون مع السلطة البريطانية واتّباع سياسة اللين والمهادنة كان يوما مبدأ ولى الأمر نفسه والجالس على عرش الخديوية ممثلا فى سياسة الوفاق بين الخديو عباس والسير غورست . . . وصفوة القول إن التصاق شاعرنا بالوظيفة الحكومية كان له بلا شك أثر واضح فى تكوينه كشاعر سياسى أو بالأحرى فى سلوكه واتجاهاته ؛ ولكنه كان أثراً ضيقاً محدوداً يجمل بنا الا نضخّم من أمره أو نبالغ فى شأنه .

ومما يذكر أن شاعرنا كان يحس فى قرارة نفسه بالحرج الذى يلاقيه فى سبيل المجاهرة برأيه . ويلوح أن إحساسه هذا كان واضحاً جليا وكان دافعا قويا دفعه فى النهاية إلى الاعتراف به صراحة فى غير مواربة أو خفاء . . . فهو برِم بأحوال بلاده متألم لما آلت اليه أمورها وهو يحس برغبة فى التعبير عن شعورة واحساسه . ولكنه يشعر فى نفس الوقت أنّ أمراً كهذا ليس بالأمر السهل المأمون العاقبة ، بل دونه ضرائب ثقيلة عليه أن يؤديها من راحته بل ومن حريته لا نعتقد أنه كان على استعداد لأدائها . . . ومن هنا نراه يقف قدماً مضطربا مترددا

كما يقول بين « الموت والهرب » وهاك ما جرى به لسانه فى هذا الشأن :

فقد غدَتْ مصرُ فى حال اذا ذُكِرَتْ
جادَتْ جفونى لهـا باللؤلؤِ الرَّطبِ
كأنني عِندَ ذِكْرى ما ألمَّ بهـا
قـرمٌ تردَّد بين الموت والهـربِ
إذا نَطَقْتُ فقـاعُ السِّجنِ مُتَّكَأٌ
وإذا سَكَتُّ فإنَّ النَّفْسَ لم تَطِبِ

وأنت ترى منه أن الشاعر يقدّم لنا عاملا جديدا له اعتباره لتعليل ما نلمسه فى شعره السياسى من بعض آثار الاضطراب النفسى والقلق الوجدانى ؛ يرجعان فى الأصل إلى أن بصاحب هذا الشعر شيئا من الخوف والوجل . فليست الوظيفة وحدها وما تستدعيه من قيود وما كان بنفس صاحبنا من حرص عليها هى التى تفسر لنا هوادة الرجل ولينه فى حالات أو سكوته المطبق فى حالات أخرى ، بل هناك إلى جانب هذا عامل اجتماعى عام أو سياسى . . . فهو لم يكن يعيش فى مجتمع اكتملت فيه أسباب الحرية السياسية ومقوماتها بالقدر الذى يحمى القانون فيه حرية القول حماية تامة أو بالقدر الذى يأبى معه الضمير السياسى أن ينال مواطنا بأذى أو شر من أجل رأيه فى أحوال وطنه السياسية .

وإذا ذكرنا أن هذه الأبيات قيلت عام ١٩٠٠ وإذا ذكرنا أنه لم يمض وقت طويل حتى تحققت مخاوف الرجل بالنسبة لغيره من المواطنين حين أخذت الحكومة تتشدد تشدداً ملحوظاً فى تطبيق قانون المطبوعات فترصدت للكتاب وأخذتهم بالشدة والعنف ؛ وإذا ذكرنا أن هذه السياسة كان لها بالفعل ضحايا من الكتاب الأحرار والمجاهدين السياسيين — كمحمد فريد وعبدالعزيز جاويش — سيقوا إلى ظلمات السجون لأنهم جاهروا بآراء سياسية متطرفة أو اعتبرتها السلطات كذلك . . إذا ذكرنا هذا عرفنا ماذا كان يعنى الشاعر مما قال ، وعرفنا أنه كان لزاما عليه لينجو بنفسه أن يتجنب العنف والتطرف ما استطاع . ومن الانصاف للحقيقة أن نقرر أنه نجح رغما عن هذه الظروف القاسية التى كانت تواجهه فى القيام بواجبه الفنى والقومى إلى حد بعيد .

١٣

مر بنا أن حافظا التحق بالجيش . ويهمنا قبل أن نعرض لسياسياته الصرفة أن نشير إلى ظاهرة قد تبدو على شىء من الغرابة . . . ذلك أن شاعرنا وقد كان جنديا لم يطرق فى شعره باب الحماسة والفخر مع أن ممارسة شئون القتال من شأنها أن تثير هاتين العاطفتين فى نفس الشاعر . . . أليس الجندى مثال الشجاعة والإقدام والتضحية وإنكار الذات ؟ ! يحمل روحه على كفه يقدمها فداء للوطن . . . يهجر راحة

العيش ونعيم الحياة ، يستقبل الصعاب والمتاعب بصدر رحب ، بل يقابل المخاطر والأهوال راضياً فى ثبات وارتياح وكل مكروه يهون لديه و يطيب عنده مادام أنه يلقاه فى سبيل الوطن والذود عنه ؟ ! فلا بد للشاعر الجندى والحالة هذه أن يصطبغ شعره بهذين اللونين من فنون الشعر . . . ولكنا لانجد أثراً لهما عندشاعرنا ، فما قاله وهو فى السودان يعمل فى الجيش بعيد كل البعدعن الحماسة والفخر . . . لابل هو مطبوع بطابع صريح ملموس من الشكوى والأنين . وإنّا لنسوق إلى القارىء شيئاً مما انطلقت به شاعريته فى هذه الفترة ، قال يشكو إلى صديق :

نزحْتُ عن الدّيارِ أرُومُ رِزْقى وأضربُ فى المَهَامةِ والتّخومِ
وماغادَرْتُ فى السودانِ قفْرا ولم أصْبُغْ بتُرْبَتِهِ أديمى
وهأنا بين أنيابِ المنايَا وتحت براثنِ الخطْبِ الجسيمِ
ولولا سَوْرَةٌ للمجدِ عندى قَنِعتُ بعيشتى قَنَعَ الظّليمِ

. . . .

أتيتُك والخُطُوبُ تُزِفُّ رَحْلِى ولى حالٌ أرقُّ من النّسيمِ
وقد أصبحتُ من سعيى وكَدْحى على الأرزاقِ كالثوبِ الرَّديمِ

إن هذه النغمة لابد وأنها تبدو غريبة متى عرفنا أنها صادرة عن جندى ؛ بل إن القارىء لا يستطيع أن يستشف هذه الحقيقة من خلال هذه الأبيات ؛ وكيف يتيسر له هذا وقد جاء فيها صراحة ذكر الكدح

من أجل الرزق ؟ ! ترى أصاحبها جندى يسمى إلى المجد ويسعى المجد اليه أم هو رجل يكدح طلباً للعيش ؟ !

واستمع اليه مرة أخرى يقول إلى طائفة من إخوانه :

مِن واجدٍ مُنَفَّرِ المنامِ
طريدِ دهرٍ جائرِ الأحكامِ
مُشَتَّتِ الشَّمْلِ على الدوامِ
ملازِمٍ للهَمِّ والسِّقام
اليكم يا نُزْهةَ الأنام
وبِغْيةَ الايناس والمُدام
من أقسَمُوا بأَلزَمِ الأقسام
بأن يُقَضُّوا دولةَ الظّلام
ما بَيْنَ بِنْتِ الحانِ والأنغام
ومُطربٍ مِنْ خيرة الأقوام
أرَقَّ من شعرِ أبى تمام
ومجلسٍ فى غفلة الأيَّام
قد ملَّ فيه كاتبُ الآثام
تحيةٌ كالورْد فى الأكمام

وعلى هذا النحو يسير شاعرنا بقصيدته فيرجو هذا الفريق من الاخوان والخلان أن يذكروه فى مجالس أنسهم وسهراتهم مابين بنت الحان والأنغام . . . هو غريب عن الديار ؛ ومن الطبيعى أن يحن إلى دياره وأن يذكر فى غربتــه الأيام والليالى الخوالى و يستعرض أمامه ذكرياته السعيدة التى كانت له بين إخوانه فى القاهرة ؛ ولـكن ماذا نقول اذا قصر جندى دوافع الحنين إلى حاضرة بلاده على هذا الضرب من ذكريات اللهو والطرب ؟ ! و إليك أخـيراً تلك النغمة الحزينة اليائسة التى يرددها فى صراحة :

كيف تَمْسى يا (بابلىُّ) غريبا ... باتَ بين الظنُون والأوْهام

وحزيناً اذا تَنفّس عَادَتْ ... فَحْمةُ الليْل جمرةً من ضِرام

وإذا أنَّ كاد يَنْصَدِعُ الأفـــقُ وتعتلُّ دورةُ الأجـرام

بات تحت البَـلاءِ حتى تمنَّى ... لو يكونُ المبيتُ تحتَ الرَّغام

أما نحن فكيف نفسر هذا التضارب بين ما تفرضه نفس الجندى من الفخر والحماسة وبين ما نظمه شاعرنا مما يفيض بالانين والشكوى ؟ الواقع أن حافظاً لم يكن رجل حرب ، وهو وإن يكن قد التحق بالجيش فعلا وشاهد شئون الحرب والقتال وعاش عيشة الجندية فى السودان ، فيلوح لنا أنه أقدم على هذا كله مضطراً . بل قل إن هذا الضرب من الحياة قد فُرض عليه فرضاً . فالحقيقة البارزة فى هذا الشأن أن حافظاً كان يسعى وراء الاستقرار فى حياته وكان يتلمس السبل الممـكنة التى

تؤدى به إلى هذا الاستقرار . . مارَسَ المحاماة أولا ثم سرعان ما صدف عنها فهى على أية حال مهنة حرة ليس من شأنها أن تمد صاحبها بإيراد ثابت منتظم . ولعله كان يتطلع يومئذ إلى وظيفة ذات مرتب ثابت ؛ فطرق باب المدرسة الحربية وكانت الحكومة قد بدأت فى إعادة تنظيمها . وما من شك أن هذه المدرسة بما كانت تهيىء لطلبتها وخريجيها من مظهر ممتاز فى الهيئة الاجتماعية إلى جانب المستقبل الوسيم والمرتب الذى يفيض بانتظام قد جذبت إليها نظر شاب كحافظ . . فأنت ترى أن الرجل لم ينشأ نشأة حربية طبيعية ساقته إليها ميوله أو نزعاته أو تراثه العائلى ؛ ولكنه سيق إلى هذه البيئة سوقاً : فلم يكن له منها سوى مظهرها الخارجى . أما وجدانه فقد ظل بعيداً عن هذه البيئة لم يتأثر بها . والوجدان هو الينبوع الذى يفيض منه الشعر . . ومن هنا كان حافظ الشاعر غير حافظ الجندى .

وهو فوق هذا لم يكن سعيداً فى حياته الجديدة ؛ فقد قذفت به إلى براثن الغربة والعزلة فى جهات نائية قاسية لم يجد فيها شيئاً من مباهج الحياة ومسراتها ولا شيئاً من ضروب المرح وألوان الطرب التى اعتادها وألفها فى القاهرة بين الصفوة من الخلان والصحاب . والجندية إلى جانب هذا تتطلب من صاحبها صفات النظام والطاعة والخضوع لأوامر الرؤساء وما إلى ذلك . . . ونحن نشك كثيرا فى أن صاحبنا لم يكن يتبرم بهذا اللون من الحياة الذى لم يكن يوافق مزاجه الشخصى ونشأته الأولى ؛

لا بل إنَّ شعره قد أفصح مره عن ضيقه بالحياة المصبوبة فى قالب من النظام ؛ ففى قصيدته التى يصف فيها زيارته لإيطاليا يأخذ على القوم أفراطهم فى النظام فيقول :

أفرطَ القومُ فى النِّظام، وعندى　　أنْ فَرْطَ النِّظامِ أسْرٌ ونيرُ
ولذيذُ الحياة ما كان فَوْضى　　ليس فيها مُسيطر أو أميرُ
فاذا ما سألتنى قلتُ عنهم　　أمَّةٌ حُرَّة وفردٌ أسيرُ

فهل لنا بعد هذا أن نتوقع منه أن يسكن إلى حياة الجندية أو أن ترضى عنها نفسه ؟ ! والثابت فوق هذا كله أن علاقته برؤسائه لم تكن على ما يرام بل كانت علاقة سيئة آلت به آخر الأمر إلى عزله من الجيش . فاذا كانت هذه قصة شاعرنا فى الجيش فهل لنا أن ننتظر منه شيئاً من شعر الحماسه والفخر ؟ ! لا بل هى قصة كان من شأنها أن تثير فى نفسه ما يكمن فيها من شكوى وضيق وأنين .

ونحن نرى أن موقف شاعرنا فى هذا موقف سليم لا غبار عليه ؛ بل إنه فى ذاته آية بينة على صدق شعوره ؛ فالشعر عنده والحالة هذه إن هو إلا تعبير صادق عما يخالج النفس من إحساسات . . . لقد كان فى وسعه بسهولة أن ينظم شيئاً قليلا أو كثيراً من شعر الحماسة والفخر ؛ ولكنه لم يفعل فدل بهذا على بعده عن الشعر الزائف الذى لا يصور عاطفة حقيقية أو شعوراً صادقاً .

وإذ قد عرضت لموقف حافظ من الجندية فانى أعرض للقارىء

فى إيجاز موقفه من الحرب ؛ وماقاله فيها ينطق بنزعته السلمية ؛ فالحرب عنده مظهر من مظاهر الطمع البغيض الذى يجرّ على الإنسانية ألوانا من العذاب وصنوفاً من البلايا تتألم لها النفس البشرية . وهذه النزعة تبدو بوضوح فى شعره حين ينظم شيئا فى الحروب التى عاصرها فمما يقول فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ :

أشبَعْتِ يا حربُ ذِئابَ الفَلاَ وغَصّتِ العِقْبانُ والأنْسُرُ
ومِيرَت الحيتانُ فى بَحْرها ومَطمعُ الانسانِ لا يُقْدَرُ

. . . .

عزريلُ هل أبصرتَ فى مضى وأنتَ ذاكَ الكيّسُ الأمهرُ
كذلك المدْفَع فى بَطْشِه إذا تعالَى صَوْتُه المُنْكرُ ؟

ومن خير ماقاله فى طبيعة الحرب ماجاء فى قصيدته عن ذكرى شكسبير التى نشرت فى مارس سنة ١٩١٦ فهو يتعرض للحرب العظمى التى كانت دائرة الرحى آنئذ فيرى أن الطبيعة البشرية لم تتغير وأن ماأخذه شاعر الانجليز على النـاس وما صوّره عنهم فى مسرحياته الخالدة منذ قرون مازال من شعارهم وطبعهم . . فيخاطب شكسبير قائلا:

أفِقْ ساعةً وانظُرْ الى الخَلْقِ نظرةً
تجِدْهُم — وإن راقَ الطِّلاءُ — هُمُ هُمُ
على ظَهْرِها مِنْ شرِّ أطماعِهم دمٌ وفَوْقَ عُبابِ البحرِ مِن صُنْعِهم دَمُ

تفانوا على دنيـــا تغرُّ وباطلِ
يَزُولُ الى أن ضجّتِ الأرضَ منهمُ
فليتكَ تحيـــا يا أبا الشِّعْرِ ساعةً
لتَنْظُرُ ما يُصمى ويُدمى ويُؤلمُ
وقائعَ حرب أجّجَ العلمُ نارَها
فكادَ بها عهدُ الحضــارةِ يُختَمُ
وتعلم أن الطّبعَ لا زالَ غالبًا
ســواء جهولُ القوم والمتعلّمُ

وأحسن ما قال فى شأن هذه الحرب قصيدته التى توجه بها إلى غليوم الثانى مستنكراً إثارته إياها ومنددا بسياسته . ولقد أظهر شاعرنا فى هذه القصيدة درجة عالية من رجاحة التفكير ونفاذ البصيرة وسلامة الرأى : وكشف عن تفهمه الصحيح للأخلاق الخفية الكامنة التى تنبعث عنها روح التسلط التى لم تفتر يوماً عن إثارة الحروب بين الشعوب تحقيقاً لجشعها وأطماعها ؛ فلنسمع إليه حين يقول إلى غليوم :

تالله لو نُصرتْ جيوشُكَ لانطوى — أجلُ السلامِ وأقفرَ المسكُونُ
سبعُونَ مليونا إذا وزّعتَها — بين الحواضر نالَنا مليونُ
وَيلٌ لمن يستعمِرون بلادَه — القحطُ أيسرُ خَطبِه والهُونُ
أكثرتَ من ذِكرِ الالهِ تورُّعاً — وزعمتَ أنكَ مرسَلٌ وأمينُ

عجباً أتذكُره وتمـلأ كونَه ... وَيْلا لينْعَم شعبُك المغبُون
وكذلك القصّـابُ يذْكر ربّه ... والنَّصلُ فى عُنُـقِ الذبيح دَفينُ

١٤

ولعل من أهم ما يعنينا عند استجلاء شعر حافظ ابراهيم السياسى هو بيان رأيه فى اخلاقنا القومية . ونحن نراه يلمس مواطن الضعف فى هذه الاخلاق ويصفها وصفا دقيقا فى كثير من الصراحة والتحليل . ومما لفت نظره بصفة خاصة ما كان عليه المصريون من تواكل و تساهل مع الاجانب ثم تقديسهم للألقاب والرتب ، وفوق هذا وذاك انصرافهم عن أحوال بلادهم السياسية . يلمح شاعرنا كل هذا فتهتاج نفسه و يشكو أمره فى قصيدته إلى حسنائه اليابانية :

إنا لولا أنَّ لى من أمَّتى ... خاذلا ما بِتُّ أشكو النُّوَبا
أمةٌ قد فَتَّ فى ساعِدها ... بغضُ الأهل وحُبُّ الغُرَبا
تعشقُ الألقابَ فى غيرِ العلاَ ... وتُفَدِّى بالنفوسِ الرُّتَبـا
وهى والاحداثُ تستَهْدفُها ... تَعْشق اللهوَ وتهوى الطّـرَبا
لا تُبالى لَعِبَ القومُ بها ... أمْ بها صَرْفُ الليالى لَعِبا

وتراه فى موضع آخر يندد بتواكل قومه وعدم إقدامهم على استغلال موارد بلادهم وتسليم قيـادهم فى المرافق العامة إلى جمـاعات من الأجانب ، وهى أدواء كانت مستفحلة فى العصر الذى كان يعيش فيه

حافظ عصر إنشاء الشركات والبنوك الاجنبية . يُحسن شاعرنا تصوير هذا كله ويجيد التعبير عنه فى القصيدة التى توجه بها إلى الأمير حسين كامل رئيس مجلس شورى القوانين عام ١٩٠٩ وحسبنا أن نذكر منهـا الأبيات الآتية :

أرى شعْباً بمدرَجةِ العوادِى ... تمخَّخَ عظمَهُ داءٌ عُقَامُ
سرَى داءُ التَّوا كل فيه حتى ... تخَطَّف رزقَه ذاك الزّحامُ
وما الموتُ الزؤامُ إذا عقَلْنا ... سوى الشركات حلّ لها الحرامُ
لقد سَعِدت بغفلتِنا وراحَتْ ... بثروتنــا وأولُها التِرامُ

ويلمس شاعرنا ذلك الداء العضال الذى يدبّ فى كياننا السياسى منذ بدأت حياتنا السياسية فى النهضة الأخيرة والذى ما نزال نعانى منه الشىء الكثير ، ونعنى به داء الانقسام والخصام فنراه يئن منه أنينا ممزوجاً بالاشفاق على مستقبل الأمة وأمانيها فيقول :

هلاكُ المرء منشؤه توانٍ ... وموتُ الشعب منشؤه انقسامُ
حسينُ حسينُ أنتَ لها فنبِّه ... رجالا عن طِلاب الحق ناموا
أفِضْ فى قاعة الشورى وئاماً ... فقد أودى بنا وبها الخصامُ

حقاً لقد عانت مصر من هذا الداء ماعانت وعصفت بها حدّة الخصومة وعنف الانقسام ، وتضخمت هذه الناحية تضخماً شنيعا فى تلك الحركة الغريبة التى قامت بين المسلمين والأقباط عام ١٩١١ . ولا

يسمح المجال أن نتناول بالتفصيل هذه الحركة الهوجاء التي مثّلت على مسرح السياسة المصرية فنشرح خفاياها ونتتبع مراحلها ؛ وحسبنا أن نلاحظ أنها كانت حركة أو بالأحرى فورة صناعية مفتعلة ، ظهرت فجأة وسرعان ماتوارت واختفت . . نقول إنها كانت صناعية لأنها لم تستند إلى طبيعة فى خُلق المصريين القومى؛ فالحق الذى لامراء فيه ان المصريين على جانب كبير من التسامح الدينى وأن الاختلاف فى الدين لم يكن يوما أساساً لحركات سياسية عامة . ولقد شهد العصر الحديث تضامناً واتفاقاً ارتفعا بالقومية المصرية إلى حد يأبى أن تتردى معه إلى هذا الدرك الذى بدا فى الحركة التى نشير إليها . . . وأغلب الظن بل لعلها الحقيقة أن هذه الحركة إنما كانت جانبا من سياسة الوفاق التى سار عليها سير إلدُنْ جورست ؛ فلا بد أن الرجل قد هالته الطاقة القومية التى كانت قد ظهرت فى البلاد وصوّبت إلى مناهضة رجال الاحتلال حتى أطاحت بعاهله الأكبر اللورد كرومر : فرأى بدهائه أن يحول هذه الطاقة عن وجهتها هذه إلى جهة أخرى تُستنفد فيها حتى تفنى وتخبو جذوتها . . وقد كان لسياسته وجهان : الوفاق مع الخديو والتفرقة بين أبناء الأمة . فكان من مصلحة سياسته إذن أن تقوى هذه النزعات المنحرفة التى بدت من الفريقين حتى اتخذت شكلا عنيفاظهر فى التنابذ على صفحات الجرائد وفى عقد المؤتمرات فى أسيوط والقاهرة . ويجب ألا ننسى حادث مقتل المرحوم بطرس غالى باشا وأثره فى إشعال هذه الحركة

من الناحيتين الايجابية والسلبية معا ؛ فلا بد أن هـذا الحادث أثار حفيظة القوم وغضبهم ؛ وهو فى نفس الوقت أفقدهم الزعامة المخلصة الرشـيدة التى كانت تتمثل فى هذا السياسى الرزين ؛ ولعله كان الشخص الوحيد الذى كان يستطيع بما عُرف به من وطنية وحكمة واتزان أن يسيطر على الموقف ويصدّ الناس عن الاندفاع فى هذا الطريق فيقضى على الحركة فى مهدها .

ولكن هناك إلى جانب هذه الحقائق حقيقة بارزة لا سبيل إلى إنكارها هى ما ذكرت من أنها لم تكن خصومة أصيلة جدية ؛ وآية هذا أنها انتهت سريعا دون أن يكون لهـا من نتائج أو آثار إيجابية ؛ فهى لم تخرج فى الواقع وحقيقة الأمر على مثل هذا الشجار أو اللجاج الذى يقوم عادة بين أخوين أو صديقين ثم يختفى وكأنه لم يكن . . . أما الأخوّة فقائمة لم ينلها ضر وأما الصداقة فباقية لم يصبها وهن .

إلا أنها كانت على الرغم من هذا حالا تستدر العطف والاشفاق ؛ وكان من الطبيعى ألا يمر بها حافظ مراً .. لا بل نرى نفسه تهتز ووجدانه السياسى يهتاج فيتوجه بالخطاب إلى الخديو كى يتدارك بحكمته وحدة الأمة ؛ وهو فى هذا إنما يرمى إلى أن يتوجّه فى نفس الوقت إلى الأمة نفسها :

مولاى! أمّتُك الوديعةُ أصبحت   وعُرى المودّةِ بينها تتفصّمُ
نادىَ بها القبطىُّ مِلءَ لهاتِه   أنْ لا سلامَ وضاق فيها المسلمُ

وَهُم أغار على النُّهى وأضلّها فجرى الغبيُّ وأقصرَ المتعلِّمُ
فَهِمُوا من الأديانِ ما لا يَرْتضى دينٌ ولا يَرْضى به من يفهمُ
ماذا دها قبطيَّ مصر فصدَّه عن ود مسلمها وماذا ينقِمُ
وعلامَ يخشى المسلمين وكيدَهم والمسلمون عن المكايد نُوَّمُ
قد ضَمَّنا ألمُ الحياةِ وكلُّنا يشكو فنحنُ على السواءِ وأنتمُ

. . . .

واجمَعْ شتات العنصرين بعَزمةٍ تأتى على هذا الخلافِ وتحسِمُ
فكلاهما لعزيزِ عرشكِ مخلص وكلاهما برضاكَ صَبٌّ مغرمُ

وفى هذه القصيدة من دقة التصوير وصدق العاطفة وحسن النصح ما ينبىء بما كان يملأ نفس شاعرنا من شدة الحرص على وحدة الأمة كأساس لتقدمها السياسى وعلى الوحـدة القومية كأول مظهر للوطنية الحقة .

وتمثل لنا الأبيات الآتية ذلك المدى البعيد الذى بلغه فى التبرم والضيق بأخلاق قومه العامة ؛ وقد قالها بمناسبة مسألة زواج الشيخ على يوسف سنة ١٩٠٤ ؛ وهو يشير فى نفس الوقت إلى الموقف السلبى الذى وقفه القوم حيال الاتفاق الودّى الذى أبرم فى نفس السنة بين فرنسا وانجلترا بشأن مصر وإقرار مركز انجلترا فيها :

حَطَمتُ يراعى فلا تعجَبى وعِفتُ البيانَ فلا تعتِبى

فما أنت يامصرُ دارَ الأديب ولا أنت بالبـلد الطيّبِ
أيُعْجِبُنى منكِ يومَ الوِفاق سكوتُ الجمادِ ولِعْبُ الصّبى
وكم غَضب الناس من قبْلِنا لسَلبِ الحقوق ولم نغضَبِ

. . . .

وشعبٌ يَفِرُّ من الصالحات فِرار السليم من الأجرَبِ
وصُحْفٌ تطنُّ طنين الذّباب وأخرى تَشُن على الأقرَبِ
تضيعُ الحقيقةُ ما بيننَا ويَصْلَى البرىءُ مع المذْنبِ
ويُهضَم فينا الإمامُ الحكيمُ ويُكرمُ فينا الجَهُول الغبى

١٥

ولم يقف اهتمام شاعرنا بأخلاق قومه عند حد أخلاقهم فى حياتهم السياسية العامـة كما رأيت ؛ ولـكنه تعداه إلى كل مظهر من مظاهر الضعف الخلقى والوهن الاجتماعى . ولعل من خير ما يمكن أن نسوقه إلى القارىء عن مدى اهتمامه هذا ما جاء فى قصيدته عن رحلته إلى إيطاليا ؛ ويلوح أن صاحبنا قد أخذ بما كانت عليه مدنها من أبهة وما كانت تدخر به من آيات فنية وما بدت فيه من نظام ؛ فجرَّه هذا إلى عقد مقارنة ظريفة بين مدن هذه البلاد ومدن بلاده هو ؛ وهو فى هذه المقارنة يبدى قدرة ملحوظة على النقد . وما كان له أن ينسى وهو بعيد

عن مصر تلك الآفة البارزة التى كان دائما يأخذها على المصريين وهى الانقسام والتقلب فى الرأى فتراه يشير اليها فى هذه الصورة الطريفة ·

جوُّهم فى تقلبٍ واختلافٍ غيرَ أن الثبات فيهم وَفيرُ
جوُّنا أثبتُ الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبُورُ

وكان لا بد له وقد رأى ما عليه هذه المدن من عمران أن يذكر مدن بلاده وهى على أية حال لم تكن تدانيها أبهة وفخامة ... وكان من الطريف حقا أن يُرجع السبب فى هذا إلى نظام الوقف وما قد يتبعه من إهمال وسوء استغلال :

أنكرَ الوقفَ شرْعُهُمْ فلهذا كلُّ ربْعٍ بأرضِهم معْمُورُ
ليس فيها مُسْتنقعٌ أو جدارٌ قد تداعى أو مسكنٌ مهْجُورُ

أحس أنى أطلت عليك بعض الشىء فى هذه النقطة ؛ ولكنى حريص مع هذا على أن أسوق إليك الأمثلة الآتية لأنها تتناول مآخذ إجتماعية ما يزال يئن منها الناس وما زالت تشوب كياننا الاجتماعى ؛ وهى فوق هذا تنطق بايمان شاعرنا بالأخلاق وأثرها فى حياة الأمم والشعوب ؛ وتدل على أن الدعوة اليها لم تتخذ عنده شكلا نظريا صوفيا بل كانت تلمس الجانب العملى من حياتنا ؛ تلمس ملو كنا الظاهر الملموس. فاليك مثلا ما يقول فى التنديد بمسلك طراز خاص من رجال الدين حين يحيدون بمبادئه وتعاليمه عن الغايات السامية الشريفة التى تهدف اليها وينحرفون بها إلى تبرير بعض المآرب الذاتية :

كم عالمٍ مدَّ العلومَ حبائلا لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ
وفقيه قوم ظلَّ يرصُدُ فقهه لمكيدةٍ أو مُستحلِّ طلاقِ
يمشي وقد نُصبت عليه عمامةٌ كالبرج لكن فوق تل نفاقِ

وعن الطبيب الذى لا يرعى فى عمله دينا ولا تأخذه فى المريض رحمة أو شفقة :

وطبيب قومٍ قد أحلَّ لطبه ما لا تُحِلُّ شريعةُ الخلاّقِ
قتلَ الأجنّةَ فى البطون وتارة جمعَ الدوانقَ من دم مُهراقِ

وتناول داء الموظفين العضال ونعنى به الرشوة فى هذه الصورة التى لعلها كانت مألوفة لدى المزارعين والفلاحين فى ذلك الحين :

ومهندسٍ للنيل بات بكفّه مِفتاحُ رزق العامل المِطراقِ
تندى وتيبس للخلائقِ كفُّه بالماءِ طوعَ الأصفرِ البرّاقِ
لا شيء يلوى من هواه فحدُّه فى السلب حدُّ الخائن السرّاقِ

أما عن الكاتب الذى لا يلتزم فى كتابته جانب الحق بل يعبث بالحقيقة ويطمس معالمها أو يشوّه منها لهوى فى نفسه أو لمطمع أو غاية فيقول :

وأديبِ قومٍ تستحقُّ يمينهُ قطعَ الأناملِ أو لظى الإحراقِ
فى كفّهِ قلم يمُجُّ لُعابُهُ سمًّا وينفثُهُ على الأوراقِ
يردُ الحقائق وهى بيضٌ نُصَّعٌ قُدسيةٌ علويةُ الإشراقِ

فيردُّها سُوداً على جنباتها   مِنْ ظلمة التَّمويه ألفُ نطاقِ

١٦

فأنت ترى من كل هذا مدى اهتمام حافظ بأخلاق قومه وسلوكهم. ولئن كنا نحس في تصويره لهذه الأخلاق شيئاً واضحاً من التشاؤم فهو لم يسكن إلى هذا التشاؤم أو يستسلم اليه قط . . ذلك أنه يعود فيرسم العلاج لما وصف من أدواء ، فمثله في هذا مثل الطبيب الذي يتحدَّث إلى مريضه ليحثه على اتباع الطريق السوى حتى يبرأ من علته . . فهذا الوصف القاتم وهذا اللوم والتأنيب يوجهها كلها إلى قومه ثم يشفعها بدعوة حارة صادقة إلى التخلص من عوامل الضعف والانحلال و يستنهضهم إلى التضافر والعمل :

عارٌ على ابن النيل سبَّاقِ الورى   – مهما تقلب دهرُه – أن يُسبقا
أو كلما قالوا تجمَّع شملُهم   لعِبَ الشقاق بجمعنا فتفرَّقا
فتدفقوا حُججاً وحوطوا نيلَكم   فلكمْ أفاضَ عليكمُ وتدفَّقا

ويقول في موضع آخر :

فالرأيُ كلُّ الرأيِ أن تتجمَّعوا   فإنما إجماعكم أرجحُ
وكلُّ من يطمعُ في صدْعِكم   فإنَّهُ في صخْرةٍ ينطحُ

وكان جميلا منه أن يدعو المصريين إلى انتهاج خطى الغرب في السعي والجد والعمل للرفعة والمجد ؛ وكان جميلا منه أن يدعوهم إلى ترك شكوى الزمان فتراه يخاطب المصري قائلا :

وانظر الى الغربى كيف سمت به بين الشعوب طبيعةُ الـكدّاح

والله ما بلغت بنو الغرب المُـنى إلا بنيّات هنـاك صحاح

فانهض ودع شكوى الزمان ولا تَنُحْ فى فادح البُـؤْسى مع الأنواح

وإذا رُزِقت رئاسة فانسج لها بُرْدَيْن من حزم ومن إسجاح

وحافظ إبراهيم الذى ينعى على قومـه مظاهر الضعف الخلق فى حياتهم العامة وينهال عليهم فى سورة من الغضب والاهتياج غير مرة على النحو الذى رأت يفصح أحياناً عن شىء كثير من الثقة بهذه الأخلاق والأمل فيها وعن إيمانه بقدرة قومه على النهوض . وهو يُعتبر من هذه الناحية المثل الحى للشاعر الصادق الشعور ، للشاعر الذى يتأثر للحوادث فتنفعل لها نفسه فيسجل هذا الانفعال تسجيلا طبيعيا لا أثر للتصنع فيه أو المداراة . . وهو من هنا كان مضطرباً فى أمر قومه يكاد لا يستقر فى شأنهم على حال . . إذا بدت فيهم مظاهر الوهن الخلق الذى لا يقبله ولا يحتمله والذى يشفق منه عليهم ثار لهذا وسخط ووجّه اليهم اللوم والتأنيب . ولـكنه إذا عاد وآنس فيهم بوادر العمل الجدى والنزوع إلى العلا فهو لا يتردد فى إظهار ارتياحـه ورضاه على نحو يقرب إلى المفاخرة بقومه والإشادة بأخلاقهم ؛ وإلى القارىء هـذه الأبيات التى نظمها سنة ١٩١٩ حين أخذت الأمة تنهض نهضتها السياسية الحديثة :

قد نفَـضنا عنا الـكرى وابتدرْنا فُرصَ العيش وانتقلْنا انتقالاَ

وشققْنا الى الحيـــــاة طريقاً وأصبنا على الزحام مجالاَ

ونهضنا فى ظلّ عرشِ فؤاد ورفعنا لِعَهْدِه تمثـــالا

واستمع اليه مرة أخرى فاذا به قد ترك النغمة القديمة التى كان يرددها ، بل تراه وقد تنازل عن روح التشاؤم التى كانت تتملكه فى شأن قومه . . قال فى القصيدة التى أنشأها فى حفل تكريم سعد زغلول بمناسبة نجاته من الرصاصة الغادرة :

فاوضْ تخلفكَ أمةٌ قد أقسمتْ ألا تنامَ وفى البلاد دَخيلُ
عُزْل ولكن فى الجهاد ضراغمٌ لا الجيشُ يفزعها ولا الاسطولُ
اسطولُنا الحقُّ الصراح وجيشنا الـ حججُ الفِصاحُ وحربُنا التدليلُ

. . . .

يأيها النشءُ الكرامُ تحيةً كالرَّوض قد خطرَت عليه قَبُول
يا زَهْرَ مصرَ وزَينها وحُماتَها مَدْحى لكم بعد الرئيس فُضُول
جُدْتم لها بالنفس فى وَرْد الصبا والوَرْدُ لم يَنْظرْ إليه ذبُول
كمْ من سجين دونها ومجاهدٍ دَمُهُ على عرَصاتها مطلول
سيروا على سَنَنِ الرئيس وحققُوا أملَ البلادِ فكلكم مأمولُ

فأنت ترى من هذا أنه لم يخالجه الشك فى أمر أمته وأنه إذا كان قد أكثر من ذكر ضعفها وعلتها فإنما ليحفزها و يستنهضها و يعرض أمامها طرائق العمل الجدى ووسائل النهوض ؛ وليضرب لها الأمثلة بالأمم الناهضة حتى تنسج على منوالها . . . ولعمرى إن هذه هى السياسة العملية

المنتجة وهى غير تلك السياسة الجوفاء العقيمة التى تقوم على مجرد التنديد والتشهير وتقف عندهما .

١٧

نعم كان للسياسة عند حافظ وجه عملى ؛ وكانت الوطنية عنده وطنية عمل وجهاد وتفكير دائم فى أحوال قومه ؛ ولم تكن وطنية كلام أو عاطفة فقط ... فنحن نراه لا يفتر البتة عن التفكير فى شئون بلاده وفيما ينتابها من أحداث وما يتجاذبها من نزعات لا من الناحية السياسية الصرفة فحسب بل من الناحية الاجتماعية والعمرانية . فالوطن لم يلعب بمشاعره وإحساساته فقط ولكنه كان يسيطر على تفكيره أيضاً ؛ ومجد هذا الوطن ورفعة هذه البلاد لم تكن عنده أنشودة يرددها أو أغنية يصدح بها ولكنه كان يروم أن يكون هذا المجد عن سبيل العمل الجدى فى الأخذ بمظاهر الرقى الاجتماعى والخلقى والقومى . ومن هنا كان له اتجاه معروف ونزعة خاصة فى مشاكل قومه وهموم بلاده العامة ؛ فهو لم يعش عيشة عزلة عن المجتمع بل كان مندمجاً فيه اندماجا ؛ ولم يقف البتة موقف الجمود أو الحياد أو الصمت إزاء المسائل الاجتماعية التى كانت تجرى على مسرح الحياة المصرية فى عصره والتى كانت تتطلب لخطرها ولأثرها فى كيان الأمة من قادة الرأى ورجالات الصف الأول رأياً خاصاً .

ويعوزنا الوقت لو أنا حاولنا أن نحصر مواقفه من مثل هذه المسائل

حصراً ؛ وحسبنا أن نذكر بعضاً منها على سبيل المثال . خذ مثلا مسألة إنشاء الجامعة الأهلية ... وقد كانت آنئذ مسألة قومية دفع اليها الشعور بضرورة تحرير العلم من ربقة السيطرة الحكومية . حقا لقد كان فى البلاد معاهد عليا للتعليم من حقوق وطب ومعلّمين وما اليها ؛ ولكن الأمة المتوثبة للنهوض آنئذ لم تقتنع بهذه الدور الحكومية وشعرت بحاجتها إلى مورد حر للثقافة وإلى عين صافية للعلم والمعرفة تكون بعيدة عن توجيهات رجال الاحتلال وسيطرتهم ... ويحدثنا التاريخ أن أول من نادى بانشاء هذه الجامعة كان الزعيم مصطفى كامل فى جريدة اللواء سنة ١٩٠٤ ، وتجدد اهتمام القوم بعد ذلك بعامين فقام بتنظيم العمل قاسم أمين وسعد زغلول وجمعت الاكتتابات من الأمراء والسراة والأعيان. ولكن المشروع مع هذا بقى يتعثر فى سيره إلى أن قيضت له العناية الأمير العظيم أحمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد الأول) فسار به قدما حتى وطد أركانه وأعلى بنيانه وأعز مكانه .

وأنت إذا سألت عن موقف شاعرنا من هذا المشروع القومى الخطير لما وجدته لاهيا عنه أو غافلا بل لألفيته وقد وقف منه موقفا قوامه التحبيذ والتعضيد وألفيته وقد اتخذ من شاعريته وسيلة الدعوة اليه ولبيان أثره الحميد فى حياة البلاد العملية والثقافية .

فأنشأوا ألفَ كتَّاب وقد علِمُوا ... أن المصابيحَ لا تُغنى عن الشُّهُبِ
هبْوُ الأجيرَ أو الحرّاث قد بلغا ... حدَّ القراءة فى صُحْفٍ وفى كُتُبِ

مَن المداوى إذا ماعلةٌ عرضَتْ؟ — مَن الدافعُ عن عِرْضٍ وعن نَشَبِ
ومن يروضُ مياه النيلِ إن جمَحتْ — وأنذرتْ مصر بالويلاتِ والحَربِ
ومن يُميطُ شعارَ الجهلِ إن طمستْ — معالمَ القصدِ بين الشكِّ والرِّيبِ
فمالكم أيها الأقوامُ جامعةٌ — إلا بجامعةٍ مَوْصولة السببِ

ويبدو من هذه الأبيات أن المفاضلة بين التعليم الجامعى والتعليم الأولى — وهى قضية مازلنا نتداولها إلى يومنا هذا — كانت تجول بخاطر القوم فى ذلك الحين ؛ ولعل الشاعر يشير فى هذه الأبيات إلى ما قام به رجال السلطة من تشجيع إنشاء المدارس الأولية والكتاتيب وجمع الاكتتابات لها من العمد والأعيان كرد على مشروع الجامعة وكوسيلة لصرف الناس عنه .

ولم يكن غريب أن يغضب رجال الاحتلال فى قرارة نفوسهم على مشروع كهذا وأن يجفلوا منه ولم يكن بغريب أن يسعوا جهدهم لإحباطه . فنحن نعلم أن سياستهم فى مصر كان قوامها السيطرة على مرافق البلاد العامة جميعا وإدارتها الوجهة التى يريدون . . . فسيطروا على الجيش والإدارة والقضاء : ولم يكن لهم أن يغفلوا السيطرة على التربية والتعليم . بل لعل هذه الناحية بالذات كان لها منزلة خاصة لديهم فهى تمكنهم من تشكيل عقلية الجيل على النحو الذى يبغون ، على النحو الذى يضمن ولاء النشء لهم نفسياً وعقليا ، على النحو الذى تبقى به القوى العسكرية مقيدة ، وأكثر من هذا على

النحو الذى يطمس معه التاريخ القومى أو تصور حقائقه تصويراً مشوهاً . . ومن ثم فان نجاح مشروع الجامعة المصرية الحرة كان فى نظرهم أول ضربة تعمل فى اساس سطوتهم ونفوذهم على هذا الشعب ، لأن معناه خلق جيل جديد ينشأ على الحرية الفكريه ويتذوقها . . . ومتى كان الإنسان حرّ الفكر والضمير أبى بطبعه أن يستكين الى الضيم والذل فى أية صورة كانت . لابد أن القوم وعلى رأسهم العميد البريطانى كانوا يقدرون كل هذه النتائج ، فكانوا يتمنون لهذا المشروع الفشل والخذلان . وهذا ماحدا بشاعرنا أن يتوجه إلى الأمة محذراً إياها من تسرّب روح اليأس والقنوط إليها ويدعوها إلى العمل والمثابرة لتنفيذ مشروعها الذى تفكر فيه وترنو اليه :

لا تقنطوا إنْ قرأتم مايزوِّقه ذاك العميد ويَرميكم به غضبا

وراقبوا يوم لاتُغنى حصائده

فكل حيٍّ سيُجزَى بالذى اكتسبا

بنى على الإفك أبراجاً مشيدةً فـ بنوا على الحق برجاً ينطح الشهبا

وجاوبوه بفعلٍ لايقوّضه قول المفنّد أنّى قالَ أو خطبا

وإلى القارىء مسألة أخرى بل مشكلة اجتماعية طالما كانت موضع أخذ ورد ليس فى ذلك العصر فقط بل وفى ايامنا ايضا ونعنى بها مركز المرأة الاجتماعى . وكلنا يعلم تلك الضجة أو هذه الثورة التى قامت حولها والتى أثارها قاسم أمين ، وكلنا يعرف انقسام القوم إلى اتجاهين متطرفين

بين الطفرة والجمود . ومسألة مركز المرأة ليست بالمسألة اليسيرة التي يمكن أن يقف شاعرنا صامتا بإزائها . . . فنحن نراه في غير مرة يفصح عن رأيه في هذه المشكلة التي كانت تسيطر على وجدان الأمة الاجتماعي آنئذ محاولا أن يرسم لأمته الطريق السوي والاتجاه السليم فيها . وهنا تبدو بوضوح خاصية شاعرنا في تفكيره وفي إحساسه أيضا ، تلك التي تكاد تلازمه في كل آثاره سياسية كانت أو اجتماعية وهي إيثاره الاعتدال وعدم الميل إلى التطرف . وإني حريص على أن أورد للقارىء الأبيات الآتية فهي من خير ما يمكن أن يقال في هذا الشأن لا من حيث المبادىء التي تتضمنها فحسب بل من حيث الصنعة أيضا :

مَنْ لي بتربيةِ النساءِ ؟ فإنها	في الشرقِ علةُ ذلك الإخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها	أعددتَ شعباً طيبَ الأعراقِ

. . . .

ليست نساؤكم حُلًى وجواهراً	خوفَ الضياعِ تصانُ في الأحقاقِ
ليست نساؤكم أثاثاً يُقتنى	في الدورِ بين مخادعٍ وطباقِ
تتشكلُ الأزمانُ في أدوارها	دُولاً وهنَّ على الجمودِ بواقِ
فتوسطوا في الحالتينِ وأنصِفوا	فالشرُّ في التقييدِ والإطلاقِ
ربُّوا البناتِ على الفضيلةِ إنها	في الموقفينِ لهنَّ خيرُ وثاقِ
وعليكم أن تستبينَ بناتكم	نورَ الهدى وعلى الحياءِ الباقي

١٨

وإذ نحن فى معرض الكلام عن اهتمام حافظ بشؤون قومه ومشاكلهم الاجتماعية كمظهر لسياسته العملية فإنا نختم هذه النقطة بموقفه من مظاهر البؤس والفاقة والضيق التى كانت تبدو فى أيامه، ولا بدأن يكون لهذه الناحية بالذات مكان ملحوظ فى تفكيره وأثر واضح على شعوره ووجدانه، فهو الرجل الذى درج فى مدارج الضيق وكان له مع البؤس وضيق العيش قصة طويلة بل علاقة وطيدة . فكان من الطبيعى أن تستجيب مشاعره بسهولة لمظاهر الضيق والبؤس التى تحل بقومه، ومن هنا كان خير معبر، عن هذه الناحية من شعراء عصره فى مناسبات عديدة لن نستطيع التبطر فيها واحدة فواحدة . . . ولكنا نذكر له قصائده الرنانة فى حريق ميت غمر وفى تعضيد الجمعيات الخيرية والهيئات التى تعنى بالطفولة وذوى العاهات وجمعيات الاسعاف وما إليها .

ولعله من المفيد أن نسوق إلى القارىء بعضا من الأمثلة لما جادت به قريحة الشاعر فى هذه المناسبات فهى تنطق بما كان له من عاطفة رقيقة وحس مرهف واستعداد طيب لمشاركة قومه مشاركة وجدانية؛ ثم هى تدلنا على ميله إلى أعمال الخير . وهو وإن لم تتوافر له وسائل المساهمة فيها مساهمة مادية أو مالية فحسبه أنه لم يتوان عن تشجيعها وتعضيدها والدعوة اليها بشعره وفنه . وهأنذا أنقل إلى القارىء مطلع

قصيدته فى كارثة حريق ميت غمر التى وقعت فى أول مايو من عام ١٩٠٢ وبقيت النيران تلتهم المدينة حتى الثامن منه :

سائلوا الليلَ عنهمُ والنهارا كيف باتت نساؤُهم والعذارىَ ؟
كيف أمسى رضيعُهم فقدَ الأمّ وكيف اصطلى مع القومِ نارا ؟
ربِّ إن القضاء أنحى عليهم
فاكشف الكربَ واحجُب الأقدارا
ومُرِ النارَ أن تكفَّ أذاها ومُرِ الغيْث أن يسيلَ أنهارا

واليك بعد هذا مطلع قصيدته الرائعة التى أنشدها فى حفل جمعية رعاية الطفل يصف فيها خدمات هذه الجمعية وأعمالها الانسانية :

شبحاً أرى أم ذاك طيفُ خيالِ ؟ لا ، بل فتاةٌ بالعراء حِيالِى
أمست بمدرجةِ الخطوبِ فمالها راعٍ هناكَ وما لها مِنْ والِ
حسْرى ، تكادُ تُعيد لحمةَ ليلها ناراً بأنّات ذَكَين طِوال
ما خطبُها ، عجباً ، وما خطبي بها ؟ مالى أشاطرُها الوجيعةَ مالى
دانيتُها ولصوتِها فى مسمعى وقعُ النِّبال عطفْن إثرْ نِبال
وسألتُها من أنتِ ؟ وهى كأنّها رسْم على طلَلٍ من الأطلال
فتململت جزعاً وقالت أحامِلٌ لم تدرِ طعمَ الغمض منذُ ليالى
قد ماتَ والدُها وماتتْ أمُّها ومضى الحِمامُ بعمِّها والخالِ

ومن طريف ما يمكن أن يذكر له فى مجال اهتمامه بهموم قومه

وآلامهم ضيقه وتبرمه بل غضبته العنيفة الحانقة على غلاء الأسعار . ولا بد أن وافدة الغلاء هذه قد أهاجت شاعرنا وأثارته وهو الرجل ذو الدخل المحدود الذى لم يرزق سعة فى العيش أو بسطة فى الرزق بقدر ما رزق من ميل إلى الانفاق ونزوع إلى التمتع بمباهج الحياة أو بطيباتها على الأقل؛ هذا الغلاء أطلق شاعريته بقصيدة طويلة بلغت مرتبة عالية من الجودة وصدق الشعور وإلى القارىء بعضا منها :

ويخالُ الرّغيفَ فى البُعد بَدراً ... ويظنُّ اللّحومَ صيداً حراما

أيها المصلحونَ أصلَحْتمُ الأر ... ضَ وبتُّمْ عن النفوس نياما

أصلِحوا أنفساً أضرَّ بها الفقْـــرُ ... وأحيا بموتِها الآثاما

. . . .

أيُّها المصــلحون رِفقاً بقومٍ ... قيَّد العجزُ شيخَهم والغُلاما

وأغيثوا من الغلاءِ نفوســاً ... قد تمنَّتْ من الغلاء الحِماما

فأعيدوا لنا المكوسَ فإنّا ... قد رأينا المكوسَ أرحمَ زماما

قد شقينا — ونحن كرّمنا اللـــهُ — بعصرٍ يُكرِّم الأنعاما

١٩

كان حافظ ابراهيم وثيق الصلة بالسياسة ، وكانت الأحداث السياسية تحتل مكانا ملحوظا من نفسه ؛ ولن نستطيع هنا أن نعدد

آراءه ومواقفه من هذه الأحداث واحدة فواحدة ، ولذا فإنا سنكتفى بعرض الاتجاهات العامة والحوادث الهامة .

* ولعل من أهم ما يعنينا فى هـذا المجال موقف شاعرنا من رجال الاحتلال . ولقد قال فى هذا الشىء الكثير وله فيه آراء واتجاهات واضحة ؛ وهو حين يتكلم عن الانجليز وسياستهم إنما يتكلم عن خبرة ومعرفة لأنه اتصل بهم اتصالاً وثيقاً فى المدرسة الحربية وفى السودان . وكلنا نعرف أنه لم يكن سعيدا فى هذه الصلة ، فقد اتهمه اللورد كتشنر فى ثورة الضباط وعصفت به سياسة رجال الاحتلال فى السودان . . . وهو وإن لم يكن قد ضمّن شعره شيئاً صريحا وافيا من تبرمه بهم و بسياستهم فى السودان فان ذلك التبرم يظهر بشكل واضح فى كتابه «ليالى سطيح» .

على أن حافظا مع هذا معجب بعظمة الدولة البريطانية ، ولقد أشاد فعلا بهذه العظمة فى قصيدته التى هنأ بها الملك ادوارد السابع سنة ١٩٠٢ بتتويجه فقال :

يا دَوْلَةً فوق أعلامٍ لها أَسَدٌ تخشَى بوادِرَه الدُّنيا إذا زَأَرَا
يؤولُ عَرْشُكِ من شمسٍ الى قمرٍ إنْ غابَتْ الشمسُ أوْلَتْ تاجَها القَمَرَا
مَنْ ذا يُناوِيكِ والأقدارُ جاريةٌ بما تَشائين ، والدُّنيا لمن قَهَرا
إذا أبتسمتِ لنا فالدهرُ مبتسمٌ وإنْ كشرتِ لنا عن نابه كشرا

ثم هو يتحدث فى صراحة عن مقومات العظمة البريطانية فيراها فى التعاون والعدل والشورى :

لا تعجبنَّ لملكٍ عزَّ جانبُه ... لولا التعاونُ لم تنظُرْ له أثرا
ما ثلَّ ربُّك عرشاً بات يحرُسُه ... عدلٌ ولا مدَّ فى سلطانِ من غدرا
خبرتُهم ورأيتُ القوم قد سهروا ... على مرافقهم والملك قد سهرا
تشاوروا فى أمورِ الملكِ من ملكٍ ... إلى وزيرٍ الى من يغرسُ الشجرا

شاعر مصرى لا ترقى إلى صدق وطنيته شبهة أو ريب يشيد ببريطانيا وعظمتها على هذا النحو الصريح . . ألست ترى فى هذا أمراً يلفت النظر ويدعو إلى التأمل ؟ . . فأية عاطفة كانت تضطرب بها نفسه فأوحت اليه بما قال ، وأى دافع دفعه إلى أن يقف موقفا كهذا ؟! الحقيقة أن ما قاله شاعرنا فى هذا المجال لم يعدُ تسجيل إعجابه العام بمقومات عظمة بريطانيا كدولة عظيمة تسعى إلى المجد فى جد وحزم منذ القدم . وليس بغريب أن يعجب الانسان بما يرى من آثار هذا المجد وهذا الجبروت ؛ وليس بغريب أن يعجب بالأركان الأساسية التى يقوم عليها النظام السياسى لهذه الدولة العريقة فى الديمقراطية . ولسنا نرى أن أوتيات هذه الدولة بالذات على سيادة مصر واحتلالها إياها كان مما يحد من إعجاب شاعر قومى كحافظ ابراهيم أو يصده عنه . . فالإنسان وإن كان يحنق على عدوه إلا أنه قد يقدر فيه قوته . وأنت كلاعب كرة أو شطرنج أوما اليها من رياضات المنافسة قد تُعجب بفن من ينازلك وبمهارته وإن كنت تحاول جهدك أن تقضى عليه وتهزمه . . .
نقول هذا لأن جهاد حافظ ابراهيم ضد البريطانيين المحتلين لبلاده

وتنديده بسياستهم الغاشمة فى مصر معروف سنلمسه بوضوح فيما يلى .

* ويلوح أن شاعرنا كانت تسيطر عليه فى هـذا الموقف العاطفة الانسانية العامة التى تحس بوحدة الحضارة الانسانية وتتهذب معها العاطفة القومية بحيث قد لا ترى بأسا من الاشادة بشعب أو بدولة أجنبية وبمكانتها فى الأسرة البشرية . واذا لم يكن بغريب أن يشيد انجليزى أو فرنسى بحضارة الفراعنه وأن يقر بفضلهم على المدنية الانسانية فأظن أنه ليس بغريب أن يعجب شاعر مصرى بروح الانجليز الدستورية وبنظامهم البرلمانى وبآدابهم وما اليها .

واليك ما قال فى رثاء الملكه فيكتوريا يشهد بكل وضوح باعجابه بمظاهر عظمة التاج البريطانى والشعب الذى يكلل هامه :

أُعزِّى القومَ لو سمعوا عزائى ... وأعلنُ فى مَلكيتهم رثائى
وأدْعُو الانجليزَ الى الرِّضـاءِ ... بحُـكمِ الله جبّارِ السماءِ
فكُـلّ العالمين الى فناءِ

أمالِـكةَ البحارِ ولا أُبالى ... أقالوا قد تغالى فى المقالِ
فمثل عُـلاكِ لم أرَ فى المعالى ... ولا تاجاً كتاجِكِ فى الجلالِ
ولا قوْماً كقوْمكِ فى الدَّهاءِ

أُعزِّى فيكِ أبطال النزالِ ... ومَنْ قاسُوا الشدائد فى القتالِ
وألقـوا بالعدُوِّ الى الوَبالِ ... ولَمْ يَمْنَعهم فوقَ الجبالِ
لهيبُ الصيْفِ أو قُرُّ الشتاءِ

٢٠

قد يقال إن هذا كان أمراً طبيعيا اقتضته ضرورة الموقف ودفعه إليه طبيعة المناسبة ؛ ولكن هذا يدلنا على أية حال على اتجاه حافظ نحو البريطانيين عامة ومسلكه السياسى إزاء رجال الاحتلال بنوع خاص نستطيع بسهولة أن نتبينه خلال شعره . والواقع إن موقفه الذى يفصح عنه شعره يقرب فى بعض المواقف والمناسبات إلى المهادنة والاعتدال ويبدو أنه كان به بعض الايمان بالتعاون مع الانجليز والتوفيق بين أمانى البلاد وبين الموقف القائم آنئذ . ولقد ظهر هذا الاتجاه بشىء من الوضوح فى وداعه للورد كرومر ؛ وإنا لنقتطف من قصيدته هذه الأبيات

قال مخاطباً اللورد :

سَنُطرى أياديكَ التى قد أفضْتَها علينا فَلَسْنَا أمةً تجحَدُ اليَدَا
وكُنْتَ رحيمَ القلب تحمى ضَعِيفَنَا وتَدْفع عنَّا حادِثَ الدهرإنْ عَدَا
ولولاَ أسىً فى دنشواىَ ولوعةٌ وفاجعةٌ أدْمَتْ قلوباً وأكبُدا
ورَمْيُكَ شعْباً بالتعَصُّبِ غافلاً وتصويرُكَ الشَّرْقىَّ غِرّاً مُجرَّداً
لَذُبْنَـا أسىً يومَ الوَداعِ لأنَّنا
ترَى فيكَ ذاكَ المُصلحَ المُتَوَدِّدا

الى أن يقول

فيأيُّها الشيخُ الجليلُ تحيةً ويأيُّها القَصْرُ المُنِيفُ تَجلُّدا
لئن غابَ هذا الليثُ عنكَ لِعلَّةٍ لقد لَبِثَتْ آثارُه فيكَ شُهَّدا

فأنت ترى أن حافظا قد بلغ باينه وهوادته حداً قربت معه قصيدته إلى المدح والاطراء والاشادة فى كثير من أبياتها . . حقا إنه أخذ على اللورد كرومر بعض الهنات ، ولكنه فعل ذلك فى هوادة ورفق ، وهذا موقف قد يبدو غريبا إذا قورن بموقف شوقى فى قصيدته التى أنشأها بهذه المناسبة بالذات . . فإنَّا نراه ينهال على كرومر طعنا وتجريحا دون هوادة أو رفق ، حتى أنه لم يذكر له أية حسنة أو مكرمة . وما بدا للبعض من حسنات كرومر ومكرماته كان عند شوقى موضعاً للتسفيه الشديد الصريح . فنحن لا نظن أن شوقى كان ينكر أثر الألعاب الرياضية بصفة عامة ولعبة كرة القدم بالذات فى تقويم الأجسام والعقول والأخلاق الفردية والعامة حين توجه بالقول إلى كرومر :

هل مِنْ نداكَ على المدارسِ أنها   تَذَرُ العلومَ وتأخذُ الفُوتبُولاَ ؟

وهذ بعد أن قال :

لما رَحلْتَ عن البلاد تَشهّدتْ   فكأنكَ الداءُ العياءُ رحيلاَ

أوْ سَمْتنا يومَ الوَداعِ إهانةً   أدبٌ لَعَمرُكَ لايُصيب مثيلا

قالوا جَلَبْتَ لنا الرفاهَةَ والغِنَى   جَحِدوا الألهَ وصُنْعَهُ والنِّيلاَ

وعن إسماعيل الذى خدش كرومر ذكراه فى خطبته عند رحيله عن مصر - ولعل هذا مما أثار شوقيا ضده إلى هذا الحد - يقول :

وامدح قصوراً شادهن بواذخاً ... قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
لو أنه لم يبنها لتخذتمو ... منها المضارب والخيام بديلا

فكيف يمكننا أن نفسر موقف حافظ هذا ؟ إن أول ما يجب أن نذكره هو أنه لم تتوافر له أسباب الحرية التامة ومقوماتها بالقدر الذى توافرت لشوقى ، فهو كان يعمل مضطراً فى أحيان كثيرة على أن تكون علاقته بذوى النفوذ والسلطان حسنة ما استطاع . وهو إلى جانب هذا يمثل الروح المصرية الشعبية أكثر من شوقى ، ونحن نعرف أن من أخلاق المصريين إيثارهم الاعتراف بالفضل لذويه ، وحسبنا أن نذكر أن كرومر ما يزال يذكر إلى يومنا هذا لدى بعض الفلاحين بشىء من الخير ... وشاعرنا لم يكن على اتصال وثيق بالخديو الذى كان يناصبه اللورد كرومر العداء كما كانت الحال مع شوقى . ويأتى أخيراً ذلك الاعتبار الذى ذكره حافظ نفسه فى قصيدته من أنه فى ذلك الموقف ليس من أهل السياسة ولكنه مؤرخ للحقيقة المنصفة البعيدة عن الهوى والغرض.

وقصيدة حافظ التى توجه بها إلى مكمهون تزيد اتجاهه إلى التعاون مع الانجليز وضوحاً . وهو حين يتكلم إلى مكمهون هذا يخيل اليك أنه يخاطب ولى الأمر فى مصر الذى بيده العقد والحل . ونحن إذا ذكرنا أنها قيلت عام ١٩١٥ والحماية فى بداية عنفوانها لذكرنا مبلغ اعتراف شاعرنا بالواقع العملى فهو يخاطب مكمهون قائلا :

ودَع الوعودَ فإنهـا فيما مَضى كانت روايه
أضحت ربوعُ النيل سلْـ طَنَةً وقد كانت ولايه
فتعهَّدوها بالصَّـلا حِ وأحسِنوا فيها الوصَايه
إنَّا لَنشكو وانتقا نَ بعدَل من يُشكى الشكايه
نرجُو حياةً حرةً مَضمُونَة فى ظلّ رأيه
ونَرومُ تعليماً يكو نُ له من الفوضى وقايه
أنتُم اطبّاءُ الشعو بِ وأنبَلُ الأقوامِ غـايه
أنَّى حللتُم فى البـلا دِ لَكُمْ من الإصلاح آيه
إنَّا بلغْنا رُشدنا والرُّشدُ تسبقُه الغِوايَه

ولـكنه بعد أن ذهب إلى هذا المدى الذى رأيت هداه حسن إدراكه ألا ينسى ولى الأمر الشرعى فى البلاد ؛ ولعله بعـد هذا أراد أن ينقذ الموقف فى شىء من اللباقة وحسن التخلص فقال :

هذا حُسَينُ فوقَ عَرْ شِ النيل تحرسُه العِنَايه
هو خَيرُ من يَبغِى لنا فدعُوه يَنْهَضُ بالبِنَـايه

وتبلغ هذه النزعة غايتها فى القصيدة التى توجه بها الى السلطان حسين كامل مهنئا أياه بالسلطنة ، فهو يدعوه دعوة صريحة الى التعاون مع الانجليز ؛ ويقيم منهم أصدقاء يبقون على الود وينصرون عند خشية الخذلان ؛ وفى ذكر الأبيات الآتية ما يغنى عن كل تعليق أو شرح :

ووالِ القومَ إنهمُ كرامٌ ... ميامينُ النقيبةِ أينَ حلُّوا

لهم مُلْكٌ على التاميزِ أضحَتْ ... ذَراهُ على المعالى تستَهِلُّ

فانْ صادَقْتَهم صدَقوكَ ودًّا ... وليس لهم اذا فتشْتَ مِثْلُ

وإنْ شاوَرْتَهمْ والأمرُ جِدٌّ ... ظَفِرتَ لهم برأىٍ لا يَزِلُّ

وإنْ عادَيْتَهم لبَّاكَ منهمْ ... أساطيلٌ وأسيافٌ تُسَلُّ

فما دِدهُم حبالَ الودِّ وانهَضْ ... بنَا فقيادُنا للخيْرِ سَهْلُ

على أننا لا نريد أن نلصق بحافظ هذا النزوع القوى إلى المهادنة مع رجال الاحتلال والتعاون معهم وإلى اطراء عدلهم وحسن نواياهم .. لا نريد أن نسجل هـذا عليه دون أن نبين العوامل التى دفعت به دفعا وطوَّحت به إلى هذه الغاية البعيدة التى قد تبدو لدى البعض غريبة من رجل مثله . الواقع إن الظروف التى قيلت فيها هذه الأبيات الأخيرة كانت ظروفا شاذة قاسية كلنا يعرفها ؛ فالخديو عباس فقد عرشه نتيجة سياسته المناوئة للانجليز فى ذلك الظرف العصيب الذى كانت تجتازه بريطانيا آنئذ . . فكان لزاما على الحاكم الجديد أن يضع هذه الحقيقة نصب عينيه ، خصوصاً وأن الموقف حينذاك كان جد عصيب لا يحتمل شيئاً يشبه ما حدث .

هذا إلى أن البلاد كانت آنئـذ تجتاز مرحلة انتقال دقيقة ؛ فقد دخلت تركيا الحرب فى صف أعداء انجلترا ؛ وهنا أحاط مركز مصر السياسى شىء كثير من الغموض واستولى على المصريين نوع من القلق

والاضطراب حين رأوا أنفسهم وجها لوجه أمام انجلترا التى أعلنت الحماية على مصر . . وكانت قواعد السلامة والنجاة تقضى عليهم أن يعتصموا بالرزانة والهدوء وأن ينتهجوا خطة اللين والروية حيال القوم حتى تنجلى الغاشية وتعرف نتيجة ذلك الصراع الدولى التى ستجرى على أساسها أقدار الدول ومصائر الشعوب . فحافظ هنا إنما يعبر عن وحى الموقف الذى اقتضته طبيعة الأشياء وتطورات الحوادث .

حقيقة إن شوقى هنأ السلطان الجديد بقصيدة تبدو عليها مسحة من الاعتدال قد يكون من المفيد للمقارنة بين الشاعرين وروحيهما أن نسوق الى القارىء مقتطفات منها . . فشوقى بعد أن أطنب فى الاشادة بأفضال إسماعيل والبيت العلوى نراه يُطرى سياسة البريطانيين المعتدلة وسماحتهم فيقول :

حُلَفاؤُنا الأحرار ألاَ إنَّهم ... أرق الشعوب عواطفاً وميولاَ
أعلَى من الرُّومان ذِكراً فى الوَرَى ... وأعزُّ سلطاناً وأمنعُ غيلاَ
لما خلاَ وجهُ البلاد لسَيفهم ... سارُوا سماحاً فى البلاد عدولاً
وأتوْا بكابرها وشيخِ ملوكها ... مَلِكاً عليها صالحاً مأمولاَ

ثم يتوجه الى السلطان حسين بالقول وكأنه يعتذر عن مسلك الخديو عباس :

يا أكرمَ الأعمام حَسْبُكَ أن تَرَى ... للعَبْرَتَيْن بوجنَتَيْك مَسيلاَ
مِن عَثْرَةِ ابن أخيك تبكى رحمةً ... ومن الخشوع لمن حباكَ جزيلاَ
ولو استطعت إقالة لعِثارِه ... من صدمةِ الأقدار كنتَ مقيلاَ

ولعلك تلحظ من هذا أن روح المداجاة الماهرة بادية فى قصيدة شوقى وأن أثر هذا الحادث عنده كان مغايراً لأثره عند حافظ ، فتناوله — وقد كان شاعر القصر — من ناحيته العائلية الخاصة أكثر مما تناوله من ناحيته السياسية العامة ؛ ومن هنا فإنه لم يتطرق الى دعوة السلطان الى التعاون مع رجال الاحتلال بهذه الصراحة ولم يصل الى شىء مما وصل اليه حافظ ابراهيم . . . ولكننا نعود فنقول أن شوقيا غير حافظ ، فهو يحسن التخلص فى مهارة وحذق وعهده بباب الأمير المخلوع ليس ببعيد . . . وعلينا أن نذكر الى جانب هذا طبيعة حافظ الصريحة المستقيمة وأنه كان فى ذلك الحين موظفاً بدار الكتب وللوظيفة قيودها ومقتضياتها كما نعلم .

٢١

ولكن حافظ ابراهيم الذى قال حينا بالتعاون مع رجال الاحتلال والذى رأينا الظروف التى ساعدت على تشكيل هذا الاتجاه فى وجدانه السياسى لم يحجم فى مناسبات عدة عن مهاجمتهم فى لين تارة وفى عنف تارة أخرى ، فكثيرا ما هاجم سياستهم ووجه اليهم سهام نقده وتجريحه ؛

وقد يكون أقرب الأمثلة الينا لهذا ما قاله فى قصيدته عند توديع اللورد كرومر :

يُناديك قد أزْرَيْتَ بالعِلْمِ والحِجا ... ولم تُبْقِ للتعليم يا (لُرْدُ) مَعْهدا

وأنك أخْصَبْتَ البلاد تَعَمُّدا ... وأجْدَبْتَ فى مصرَ العُقولَ تَعَمُّدا

وأوْدَعْتَ تقريرَ الوَدَاعِ مغامزا ... رأينا جَفاء الطَّبْع فيها مُجَسَّدا

غَمَزْتَ بهـــا دينَ النَّبىّ وإنَّنَا

لَنَغْضَبُ إنْ أغْضَبْتَ فى القَبْرِ (أحمَدَا)

فشاعرنا وإن يكن قد أشاد عند توديع كرومر فى اعتدال ببعض الاصلاحات التى تمت على يديه والتى لاسبيل الى إنكارها إذا التزمنا شيئاً من الانصاف فإن هذا لم يمنعه من أن يسجل عليه أوجه الضعف فى سياسته بصفته عميد الدولة المحتلة ولامهُ فى صراحة على آرائه المتطرفة التى رمى بها المصريين والتى نعتقد أن اللورد إنما دفع اليها فى سورة من الحنق والغيظ للنهاية القاسية التى ختم بها مقامه الطويل فى مصر . . . تلك النهاية التى لم يكن يتوقعها هو لنفسه كما أن أحداً لم يكن يتوقعها له .

غادر اللورد كرومر البلاد فى خريف ١٩٠٧ بعد أن أقام بها كأول معتمد للدولة المحتلة حوالى أربعة وعشرين عاماً كان خلالها صاحب الكلمة العليا فى شئون البلاد ، أو قل كان هو صاحب العقد والحل فيها ، ولمست البلاد فيه سلطة جديدة كانت هى فى الواقع السلطة الفعلية . . . أما فندينا الخديو وأما مولانا السلطان فقد غدا سلطانهما اسمياً وصورياً

لايزيد . ويلوح أن اللورد كرومر كان يعتبر نفسه المسئول الأول عن البلاد من الناحية الأدبية فوق مسئوليته الرسمية ؛ ولذا كان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها ... يزور الاقاليم فتهتز له الادارة ويتسابق الأعيان وذوو الجاه فى التقرب اليه ؛ ولم يكن من المبالغة فى شىء أن يشبهه شاعرنا «بفرعون» فى قصيدته التى نظمها عند توديعه .

ولقد استطاع كرومر فى نفس الوقت أن ينظم البلاد من الناحية الادارية ؛ وكان طبيعيا أن يركز الإشراف الادارى فى يد المستشارين والمفتشين من الانجليز ؛ ووضع بذلك الاسس والتقاليد التى تقوم عليها الادارة المصرية فى عهد الاحتلال ... فكان المستشار الانجليزى فى كل وزارة هو المسير الفعلى لدفة الأمور بها ؛ وكان على الوزير المصرى أن يخضع لتوجيهاته خضوعاً تقليديا ؛ أما المفتشون من الانجليز فكانوا يشرفون على مختلف فروع الوزارة . واعتاد أفراد الشعب أن يبثوا شكاواهم مما قد يلاقونه من عنت الموظفين أو تقصيرهم الى هؤلاء المفتشين أو قل أن هذه الشكايات كان مرجعها الرسمى إليهم ؛ وهنا تبدو سطوة المفتش حين يتولى تحقيق الشكايات وينصف أصحابها .

قبلت البلاد هذا الأسلوب الإدارى وسكنت اليه بادىء الأمر . غير أن هذا لم يكن معناه أن يستقر أو يستمر الى النهاية ؛ فحين اشتد ساعد الحركة القومية وتفتحت نفوس المصريين إلى آفاق وطنية جديدة ضاقوا بهذا التدخل الذى كان بمثابة الحجر عليهم ، خصوصاً عندما أسندت هذه الوظائف إلى طائفة من الشبان الحدثين الذين أحدثت

منهم الخيلاء والغطرسة فلم يسوسوا الأمور بروح الحكمة والروية ؛ ولعل مأساة دنشواى ترجع فى سببها الأول إلى تلك الروح الجديدة التى تسربت إلى الادارة الانجليزية أو إلى العنصر الانجليزى فى الادارة المصرية .... وهنا ثارت الخواطر ضد السياسة الكرومرية ؛ وانتهت المسألة باستقالة اللورد كرومر وتعيين سير إلدن جورست مكانه ؛ فكان هذا إيذانا بدخول السياسة البريطانية فى مصر فى دور جديد .

ولقد انتهز حافظ ابراهيم فرصة مجىء العميد الجديد فتوجه إليه بكل مارآه من نقائص السياسة القديمة ؛ داعيا إلى تمكين المصريين فى إدارة شئون حكومتهم ؛ وهو فى سبيل هذا يهاجم السياسة الكرومرية فى عهدها الأخير فيقول :

إذا استوزَرْتَ فاستوْزِرْ عَلَيْنَا ... فتىً كالفَضْلِ أو كابنِ العَميدِ
ولا تُثْقِلْ مطَاهُ بِمُسْتَشارٍ ... يَحيدُ به عن القَصْدِ الحَميدِ
وفى الشُّورَى بنا داءٌ عَهِيدٌ ... قد استَعْصَى على الطبِّ العَهِيد
شيوخٌ كلما هَمَّتْ بأَمْرٍ ... زَأَرْتُم دُونَه زَأْرَ الأُسُودِ
لحىً بيضاءُ يَوْمَ الرأْىِ هانَتْ ... على حُمْرِ الملابِس والخُدُودِ
أرى أحداثَكُم مَلَكُوا علينا ... بِمِصرَ مواردَ العيش الرَّغيدِ
وقد ضِقْنَا بهم وأَبيكِ ذَرْعاً ... وضاقَ بحملهم ذَرْعُ البريدِ
أكُلُّ موظَّفٍ منكم قديرٌ ... على التَّشريع فى ظِلِّ العَميدِ؟

ومن هذا نرى كيف كان شاعرنا يضيق بالأوضاع القائمة التى آلت اليها الأمور آنذاك ، فيهاجم فى عنف سياسة الاحتلال ويثور على رجاله وأساليبهم مواجها المعتمد الجديد بما يراه دون خشية أو موار بة حتى لتراه يقول :

فتحّ غضاضةَ التاميزِ عنّا كَفانا سائغُ النيل السّعيدِ

وإنى حريص بعد هذا على أن أسوق للقارىء موقف شاعرنا من أحد أقطاب رجال الاحتلال هؤلاء ؛ ولعله كان من أشدهم خطراً لأن أثره كان يتصل بحياة البلاد التعليمية والفكرية والثقافية ونعنى به مستر دنلُوب مستشار المعارف ؛ وكانت البلاد قد سئمت نفوذه المطلق فى وزارة التربية والتعليم وقالب الجمود الذى صبّهما فيه ؛ وأخذت تنشد لها روحاً جديدة تقوم على شىء من الحرية والتجديد لعلهما لم يكونا ليتفقا مع ميول المستشار ونزعاته ... يحسن شاعرنا تصوير هذا الشعور فى الأبيات الآتية وفيها تبدو روح الدعابة الظريفة والتهكم اللاذع واضحة جلية :

هَنُوا (دَنْلوب) أرْحبكُم جَناناً وأقدرَكُم على نَزْع الحقُودِ
وأعْلى من غِلادِستون رأياً وأحكَمَ من فَلاسِفَةِ الهُنُودِ
وإنا لانُطيقُ له جِوَاراً وقد أوْدَى بنا أو كادَ يُودِى
مَلِلْنا طُولَ صُحْبَتِه ومَلَّت سَوابِقُنا من المَشْى الوئيدِ

بحمد الله مُلكُكم كبيرٌ وأنتم أهلُ مرحمةٍ وجودِ
خذوه فأمتعوا شعباً سواناً بهذا الفضلِ والعلمِ المفيدِ

٢٢

* على أن تنديد حافظ ابراهيم بالسياسة البريطانية أو بسياسة الاحتلال يبدو بشكل واضح فى حادثة دنشواى ، وهى حادثة لها شهرتها فى تاريخ مصر الحديث أو بالأحرى فى تاريخ الاحتلال البريطانى وليست بنا حاجة الآن الى تحليل وقائع هذه الحادثة ودراستها ، وحسبنا أن نذكر أنها كانت من الحوادث التى تبدو بسيطة فى مظهرها وهى مع هذا تتمخض عن آثار بعيدة المدى بل عن انقلابات لها خطرها . . . نعم فان أحداً لم يكن يقدر حين وقعت هذه الحادثة عفواً غداة يوم من أيام يونية الشديدة القيظ بين جماعة من فلاحى احدى قرى المنوفية وبين بعض الجنود البريطانيين الذين كانوا يعتادون صيد الحمام فى هذه الربوع أن يبلغ صداها آفاق العالم المتمدن بأسره . بل إن رجال الاحتلال أنفسهم حين أساؤا فهم هذه الحادثة وأسرفوا فى تقديرها إسرافاً جعلهم يخرجونها من صفتها الفردية ، فتصوروا واهمين أنها تمثل روح تمرد عامة يضمرها المصريون لهم ، الأمر الذى جعلهم يركبون متن الشطط فى معاملة المتهمين . . . لم يكونوا يتصوَّرون حين فعلوا هذا أنهم يهيِّئون الجو ويمهِّدون السبيل لانقلاب ملحوظ فى تاريخ العلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا . . . ذلك أن المصريين من جهتهم قد أهاجتهم قسوة الحكم

والأسلوب الذى اتخذ فى تنفيذه ، فانطلقت صحفهم تعبِّر فى حدة وعنف عن الاستياء العام الذى شمل البلاد . أما مصطفى كامل فإنه استغل الحادث أحسن استغلال فى التنديد بسياسة الاحتلال فأطلق صوته مستنكرا ماحدث مدعيا بحق أنه يجرح العدالة البريطانية . ولقد نفذ صوته إلى لندن وأخذ صداه يتردَّد فى مجلس العموم نفسه . ولقد كان لهذا أثره البيِّن فى تهذيب السياسة البريطانية بمصر ، ولا بد أن القوم قد أدركوا أن الشدة أو العنف إنما تثير شعبا هادئا أكثر من أن ترهبه أو تفزعه ؛ ومن هنا فإنهم فهموا أن سياسة رجالهم فى هذه الحادثة كانت سقطة كان جديرا بهم أن يتجنبوها ، وكان عليهم وقد وقعوا فيها أن يخفِّفوا من أثرها .

على أن حادثة دنشواى هذه تحمل فى طياتها عبراً جديرة بالنظر والاعتبار ؛ فقد كانت محكا صادقاً كشفت عن أخلاق القوم السياسية وعن طبيعة هذه الأخلاق . ولعل أول مايلمت النظر أن ركن القصد الجنائى فى هذه الحادثة لم يكن متوفراً فى قليل أو كثير ؛ فالحادثة من أولها الى آخرها من نسج الأقدار . فلو أن صيَّادى الحمام كانوا قد ابتعدوا قليلا عن جُرن الغلال لما حدث شىء : بل لو كان الضابط المصاب فى رأسه هدأ واستكان ولم يجر فزعاً مسافة طويلة فى الشمس المحرقة لما خرَّ صريعاً بضربة الشمس لابضربة العصى كما اعترف بذلك تقرير الطبيب البريطانى نفسه . . . . فكان جديرا برجال الاحتلال أن ضبطوا عواطفهم نحو المتهمين فلا تطغى عليهم سورة الانتقام على نحو

تضيع معه كل مظاهر العدالة التى هى أول واجب عليهم بقـدر ما هى أول حق المتهمين .

العدالة ؟؟! وكيف تُذكر العدالة حين تذكر دنشواى ؟! . . .

مشانق ترسل من القاهرة الى مكان الحادث قبل أن تنعقد المحكمة لتنظر القضية . . . محكمة عسكرية ممسوخة التكوين جلّ أعضائها من الانجليز ؛ فهى الخصم والحكم ؛ تحاكم اناساً مدنيين لاجنود محاربين ، فى وقت لاحرب فيه ولا قتال ؛ يسود فيه النظام والسلم ؛ فلا أحكام عرفية ولا إجراءات استثنائية ... محكمة لا تتقيد بأحكام قانون العقوبات ، حكمها نهائى غير قابل للطعن أو التعديل أو حتى لمجرد المراجعة أو التصديق كأنه القدر الذى لاراد لقضائه . . . .

متّهمون يساقون إليها فى عجلة متناهية وسرعة فائقة حتى أن قضية كهذه متشعبة حوادثها عديد شهودها دقيقة تفاصيلها لا يستغرق نظرها الأسبوعين من يوم وقوع الحادث الى تنفيذ الحكم الذى نُفّذ فى المتهمين فى اليوم التالى لصدوره . . . . دفاع متخاذل لم يكترث بخطورة الاتهام ولم يتناسب مع شدته وعنفه .

وأخيراً حكم قاس عنيف باعدام اربعـة من المتهمين شنقاً أولهم شيخ فى الخامسة والسبعين وسجن الباقين وجلدهم . . .

غير أن هذا كله قد يتضاءل ويهون أمام الطريقة الوحشية التى اتخذت فى تنفيذ الحكم ... فساعة التنفيذ لم تخف عن المتهمين كما تقضى أبسط مبادىء الرحمة ؛ فقد أبى السادة إلا أن ينفذ الحكم فى مكان

الحادثة وفى وقت حدوثها من النهار . . . . وهكذا سيق المتهمون سوقاً فى فجر يوم التنفيذ من شبين الكوم مقر المحاكمة إلى قرية دنشواى ، وظلوا هناك الساعات الطوال ينتظرون نهايتهم الرهيبة المفزعة .

ولقد بلغ من استهتار القوم بالعواطف الانسانية أن رفضوا طلباً لأحد أبناء المحكوم عليهم بالشنق كى يلقى والده قبل إزهاق روحه ليودعه الوداع الأخير ويتلقى منه ماقد يوصى به ....

أمّا المشانق فقد نُصبت فى القرية علناً ، ونُفِّذ حكم الاعدام فى المتهم الأول أمام أهله وذويه ، وبقى معلقاً حتى تم جلد اثنين ، ثم شنق الثانى وبقى معلقاً حتى جلد اثنان آخران وهلم جرًّا ...

وهكذا انتهى الأمر بمحاكمة دنشواى أن أصبحت مجزرة بشرية بشعة ... إن كل عطور بلاد العرب لن تستطيع أن تذهب برائحة الدماء البريئة التى تخضبت بها أيدى بريطانيا أو على الأقل أيدى رجالها فى مصر يوم دنشواى ! !

ونحن حين نقول هذا نذكر للفرنسيين موقفهم الرزين فى حادث مقتل كليبر ... فعلى الرغم من أن القاتل اقترف جريمته عن سبق اصرار وترصد ، وعلى الرغم من مكانة القتيل وعلو مركزه وسامى مقامه ، وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا يقيمون فى البلاد حكومة عسكرية صرفة ، وعلى الرغم من أن الحادثة وقعت بعد ثورة القاهرة ضدهم المرة الثانية ، وعلى الرغم من أنهم كانوا فى حالة حرب مع انجلترا وتركيا ..

على الرغم من كل هذا فإن الفرنسيين تمكنوا من ضبط أعصابهم ليس إزاء المصريين عامة بل إزاء المتهمين أنفسهم ؛ فان التاريخ ليشهد لهم بدقة الاجراءات فى التحقيق و بنزاهة المحاكمة على نحو لم يكن له من ظل فى حادثة دنشواى مع ما بينها و بين مقتل كليبر من بون شاسع بل اختلاف بيِّن فى طبيعتها وملابساتها والظروف التى وقعت فيها . . . نعم فإن مركز الأنجليز لم يكن فى ذلك الحين مهدداً ، فمقامهم فى البلاد كان قد استقر زهاء العشرين عاماً دون أن يثور عليهم أحدمن المصريين أو يرفع يده ضدهم بأذى . وهم لم يكونوا فى ذلك الحين مهددين بعدو خارجى ولم يكونوا يحاربون حربا من حروب الحياة والموت حتى يبرروا روح الارهاب والتنكيل التى سادت سلوكهم إزاء هذه الحادثة .

✱ أما أن رجال الاحتلال قد أساءوا الى سمعتهم الأدبية بل إلى سمعة العدالة البريطانية بما اقترفوا فى دنشواى فأمر جلى واضح فإن الناس أخذوا يفهمون أن ماقد يبديه الحكام البريطانيون من اللين والحسنى أحيانا أقرب لأن يكون اسلوبا سياسيا الغرض منه أصلا جذب الشعوب المغلوبة على أمرها إليهم كى يتوطد نفوذهم فى البلاد . . . فعدالة كهذه ليست عدالة مطلقة بل سياسية . وإذا كان هذا موقف العدل ومكانته فهو خادم للسياسة وتابع لها ، وما دامت السياسة هى سيدة الموقف فقد تخرج من جرابها الظلم والعسف كما تخرج العدل واللين . . . وهذامارآه الناس بالفعل فى حادثة دنشواى .

فأنت ترى من كل هذا خطر تلك الحادثة وأثرها وأنت ترى كيف

أنها هزت وجدان المصريين آنئذ هزة عنيفة وأنها احتلت مكان الصدارة في حياتهم السياسية مدى حين . ولم يكن حافظ ابراهيم كمصرى أولا وكشاعر يعالج بشعره شئون قومه العامة ثانيا ليستطيع أن يتجنب القول فيها .. ولكن موقفه فى هذا كان ذا طابع خاص جدير بالنظر فهو وسط هذه العاصفة العاتية وهذا الانفعال العنيف نراه يتمالك أعصابه إلى حد بعيد ويسيطر عليها ، فيعاتب القوم فى أسلوب تبدو عليه مسحة لهدوء ولكنه يُخفى فى طياته أسى مريراً ولوعة مكبوتة وتهكما لاذعاً ، ولعل القارىء يلمس معنى هذا فى الأبيات الآتية :

أيها القائمونَ بالأمْرِ فينا ... هل نَسِيتُمْ ولاءنا والوِدادا
خَفِّضُوا جَيْشكم ونَامُوا هنيئاً ... وابْتَغُوا صَيْدَكُمْ وجُوبُوا البلادا
وإذا أعوزتكُمُ ذَاتُ طوقٍ ... بين تلك الرُّبَا فَصِيدُوا العبادا
إنما نحن والحَمامُ سَوَاءٌ ... لم تُغَادِرْ اطواقُنا الأجْيادا
لاتَظُنُّوا بنا العُقوقَ ولكنْ ... أرْشِدُونا إذا ضَلِلْنا الرَّشَادا
أحْسِنوا القتلَ إن ضَنِنْتُم بعَفْوٍ ... أقصَاصاً أرَدْتُمُ أمْ كِيادا ؟
أحْسِنوا القتلَ إن ضَنِنتم بعفو ... أنُفُوساً أصَبْتُمُ أم جَمَاداً ؟
لَيْتَ شِعْرِى أتلك محكمةُ التَفْ ... تِيشِ عادت أمْ عهدُ (نيرون) عادا ؟!

أما يوم دنشواى نفسه يوم نُصبت المشانق بين الديار وعلى مرأى من الأهل والأزواج والأبناء ، ويوم أن جىء بالسياط لتمزق الأجساد وتفرى العظام فلم يغفله صاحبنا بل تولى وصفه وتصويره وصفاً دقيقا

وتصويراً رائعا فى القصيدة التى أنشأها لاستقبال اللورد كرومر عند عودته إلى مصر وقد كان غائبا عنها حين حدث ماحدث :

فى دِنشواى وأنت عنا غائبٌ لَعِبَ القضاءُ بنا وعزَّ المَهرَبُ
حَسِبوا النفوسَ من الحمَام بَديلةً فتسابقُوا فى صيدِهنَّ وصوَّبُوا
نُكِبوا وأقفرَت المساكن بعدهم لو كنتَ حاضرَ أمرِهم لم يُنكَبُوا
خلَّيتَهم والقاسطون بمرصدٍ وسياطُهم وحبالُهم تتأهَّبُ
جُلِدوا ولو منَّيتَهم لتعلَّقوا بحبال من شُنِقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقوا ولو مُنِحوا الخيار لأَهَّلوا بلظى سياطِ الجالدين ورحَّبُوا
يتحاسدون على الممات ، وكأسُهُ بين الشفاهِ وطعمُهُ لايعذُب
موتان : هذا عاجلٌ متنمِّر يرنُو ، وهذا آجلٌ يترقَّبُ

وعن مستر مِتْشل مستشار الداخلية بطل هذه المأساة فيقول :

والمستشار مكاثِرٌ برجاله ومعاجزٌ ومفاجزٌ ومحزِّبُ
يختالُ فى أنحائها متبسِّماً والدَّمعُ حول ركابه يتصبَّبُ

ومما يلاحظ أن حافظا لم ير فى هذا الحادث مجرد وسيلة للتنديد بالسياسة البريطانية أو بالقائمين بالأمر من البريطانين فى مصر كما فعل الزعماء السياسيون آنئذ ، ولكنا نراه يقف منه موقف المنصف الذى يحيط أقواله بسياج من النزاهة والاعتدال ، والذى يحاول أن يفسر الحوادث بردها الى أسبابها وعللها . . . فى استقبال كرومر عقب الحادثة لم ينس أن

يشير اليها . . بل كان لا بد له أن يفعل ؛ ولـكنه لم يتكلم بوحى العاطفة فقط ولم تُنسه ثورة الأسى أن ينفذ الى موطن الداء ليبيِّن الأسباب الخفية التى أدت الى هذه الفجيعة ؛ وأغلبها فى الظاهر غرور مستشار الداخلية واستسلامه الى الغضب والحنق واصطناعه الشدة والعنف ، ولم تفته الاشارة الى الدرس الذى يمكن أن يتعلمه ذوو الشأن منها :

أو كلما باحَ الحزينُ بأنَّةٍ أمسَت الى معنى التعصُّب تُنسَبُ
إن أزهقُوا صيَّادكم فلعلَّهم للقوتِ لا للمُسْلمين تعصَّبُوا

. . . .

قد كان حولك من رجالك نخبةٌ ساسُوا الأمور فدرَّبُوا وتدربوا
أقصيتَهمْ عنَّا وجئتَ بفتيةٍ طاشَ الشبابُ بهم وطارَ المَنْصبُ

ولقد كان لهذه الحادثة أثر واضح فى إيقاظ الشعور القومى وفى تقوية العزائم لمناهضة الظلم والطغيان ؛ و بدأت الأمة تفيق من غفوتها وتعدل من سلوكها نحو الاحتلال البريطانى ورجاله ، ذلك السلوك الذى كان ينطوى فى الغلبة على الاستسلام و إقرار الأمر الواقع . فاذا بالأمة بعد هذه الحادثة تنهض وتهب للذود عن كرامتها وتسير قُدماً فى طريق العزة القومية والكرامة الوطنية ؛ وهذا ما يحسن شاعرنا التعبير عنه فى هذه الأبيات :

قتيلُ الشمسِ أورثَنا حياةً وأيقظَ هاجعَ القومِ الرُّقُودِ
فليت (كروماً) قد دامَ فينا يُطوِّقُ بالسلاسلِ كلَّ جيدِ

ويُنحِفُ مصرَ آنا بعد آنٍ بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لِنَنزَعَ هذه الأكفانَ عنّا ونُبعثَ فى العوالِم من جديد

غير أنه من الحقائق المعروفة المقررة أن موقف الجانب المصرى فى محاكمة دنشواى كان موقفا ملوما معيبا ، لم يحاول التخفيف من حدة لاتجاه نحو المتهمين ومن نوايا التنكيل المبيتة ضدهم . ومن المعروف أن الدفاع عن هؤلاء المتهمين قصّر قصورا واضحاً فى مواجهة الاتهام الذى كان عنيفاً عاتيا : ولم تتجاوز مهمته حدُ الاعتذار عنهم على نحو يقرب من الاقرار بالذنب والاعتراف بالجرم ، مع أن مهمة الدفاع هى التبرير على أية حال ومحاولة التبرئة ماأمكن . . . فكأنى بهذا الدفاع وقد فهم وظيفته ومهمته على أنها تيسير الطريق إلى النهاية المقدرة على المتهمين ؛ وهذا الموقف الغريب أخذه على الدفاع عبد العزيز جاويش فيما بعد فى مقالاته « ذكرى دنشواى » . . . أما لماذا وقف حافظ ابراهيم من هذه المسألة موقفاً سلبيا فلم تجر له على لسان فأمرٌ يدعو الى الاستغراب ، وهو الذى هاجم الهلباوى بك الذى قام بدور النائب العام فى هذه القضية مع أن مسلكه إزاء المتهمين قد يكون متفقاً مع طبيعة دوره . . . ولكنه لم يَنجُ رغم هذا من غضبة حافظ التى انتابته فانهال عليه بهراوة ثقيلة من القدح والتأنيب لعلّها كانت أشد إيلاما من السياط التى مزّقت أجسام ضحاياه ؛ فتوجّه اليه قائلاً :

أيُّها المدَّعى العموميُّ مهلاً بعضَ هذا فقد بلغتَ المرادا

لا جَرَى النيلُ فى نواحيكِ يا مصـرُ ولا جادكِ الحيا حيث جادا
أنتِ أنبَتِّ ذلكَ النَّبْتَ يا مصرُ فأضحَى عليكِ شوكاً قتادا
أنتِ أنبتِّ ناعقاً قام بالأمسِ فأدمَى القلوبَ والأكبادا
إيهِ يا مدرهَ القضاءِ ويا مَنْ سادَ فى غفلةِ الزمانِ وشادا
أنتَ جلّادُنا فلا تنسَ أنَّا قد لبسنا على يديكَ الحِدادا

ويبلغ ضيق شاعرنا بسياسة رجال الاحتلال حد التبرم والسخط والتحدى فيصوّر شكوى مصر منها بقوله سنة ١٩٠٧

يَعِزُّ علينا اليومَ أنْ أخصبَ الثَّرى
وأنْ أصبحَ المصرىُّ حرّاً منعّما
أعِدْ عهدَ إسماعيلَ جَلْداً وسُخْرةً فإنِّى رأيتُ المنَّ أنكى وآلما
عملتمْ على عِزِّ الجمادِ وذُلِّنا فأغليتمُ طيناً وأرخصتمُ دما

من كل هذا نرى أنه كان يقف بالمرصاد لرجال الاحتلال؛ وكان يقيم من نفسه رقيباً على أعمالهم متخذاً من شعره وسيلة طيّعة للتعبير عن آماله وآلامه. يهاجم هجوماً عنيفاً ولكن فى حكمة وروية واعتدال ينفذُ عن سبيلها إلى طبيعة الأدواء فيشخّصها تشخيصاً دقيقاً؛ ثم يصوغ هذا كله فى عبارة جزلة قوية تحمل فى طياتها الأسى المرير حينا والتهكم اللاذع أحيانا. ولعل من خير الأمثلة لهذا التهكم ما ورد فى قصيدته التى نشرها فى استخفاء يُندِّد فيها بهجوم الجنود على مظاهرة السيدات

فى اجتيازها شوارع القاهرة صوب بيت الأمة فى ثورة عام ١٩١٩ . .
فهو بعد أن يصف هجومهم بالبنادق والمدافع والسيوف على حاملات
الورود والرياض يختم قصيدته قائلا :

فليهنأ الجيشُ الفخورُ بنصرهِ وبكسرهنّه
فكأنما الألمانُ قد لبسوا البراقعَ بينهنّه
وأتوا بهندنبرج مختفياً بمصر يقودهنّه
فلذاك خافوا بأسهنّ وأشفقوا من كيدهنّه

كل هذه الأمثلة التى ذكرت تدل بوضوح على أن حافظاً كان له اتجاهان إزاء رجال الاحتلال : اتجاه المهادنة واللين واتجاه المناجزة والعنف ولكنها تدل فى الوقت نفسه على أن اتجاه المهادنة واللين إزاء القوم كان اتجاهاً مؤقتاً أملته مقتضيات الأحوال والظروف . أما الأصل عنده فهو التبرم بسياستهم حين تعصف بمصالح مصر وآمالها ؛ ويبلغ هذا التبرم أشد الدرجات عنفاً حين يكون بعيداً عن وظيفة الحكومة حراً من قيودها ... وصفوة القول إن حافظاً كان فى مذهبه السياسى يميل إلى اتباع سياسة « الوسط المحمود » الذى يقف بين التطرف والتهاون أو بلغة ارسطو بين الإفراط والتفريط .

٢٣

ولحافظ فوق هذا قدم راسخة فى معرفة طبيعة السياسة البريطانية وكنهها ومراميها وغاياتها وأساليبها : فهو يعرف تفوق دهائهم وطول باعهم

فى السياسة وتفننهم فى أساليب المراوغة السياسية ؛ وأنهم يقولون مالا يفعلون ويصرحون بغير مايضمرون ويجيدون الأخـذ والرد على نحو يقرب من طرائق المساومة التجارية المألوفة ولعل من أجود شعره فى هذا الشأن ما توجه به الى الزعيم خالد الذكر سعد زغلول وهو فى طريقه الى انجلترا لمفاوضة الحكومة البريطانية :

أَلْقَوْمُ قد ملكُوا عِنَانَ زمانِهمْ ... وَلَهُمْ رواياتٌ به وفصُولُ
وَلَهُمْ أحابيلٌ إذا ألقَوْا بها ... قَنَصُوا النهى فأسيرُهُمْ مَخْبُولَ
إنْ مَثَّلوا فَدَعِ الخيَالَ فإنَّمَا ... عند الحقيقةِ يَسْقُطُ التمْثِيلُ
الشِّبرُ فى عُرْفِ السياسةِ فَرْسَخٌ ... واليومُ فى فَلَكِ السياسة جيلُ
ولكلِّ لَفْظٍ فى المعاجِمِ عِندهُمْ ... مَعْنىً يقَالُ بأنَّهُ مَنْقُولُ
جَمَعُوا عَقاقِيرًا الدَّهاءِ وركَّبُوا ... ماركَّبُوهُ وعِنْدَكَ التَّحْليلُ

وهو يحذر سعداً فى هذا المجال من أن يؤخذ بمظاهر اللين والدماثة والرقة الخادعة التى يبديها الساسة البريطانيون عادة فيقول :

لاتقرَبِ (التَّاميزَ) واحذرْ وِرْدَهُ ... مَهْمَا بدَا لكَ أنَّهُ مَعْسُولُ
الكَيْدُ ممزوجٌ بأصفى مائِهِ ... والخَتْلُ فيه مُذوَّبٌ مَصْقُولُ
كَمْ واردٍ ياسَعْدُ قبلَكَ ماءَهُ ... قد عادَ عَنْهُ وفى الفُؤادِ غَليلُ .

ترى أ كانت بسعد حاجة إلى مثل هذا التحذير ؟ ! ولكنَّها فرصة انتهزها الشاعر ليفصح عن رأيه فى أساليب السياسة البريطانية، وهو كما ترى قليل الثقة بنزاهة هذه الأساليب شديد الريبة فى نواياها نحو قضية

بلاده ؛ وهذا ماحدا به أن يبث فى الناس يوماً روح الحذر والشك فى وعود السياسة البريطانية وابتساماتها الخلابة :

فلا تثقوا بوعد القوم يوماً ... وإن سحاب ساستهم جهام
وخانوهم إذا لانوا فإنى ... أرى السوّاس ليس لهم ذمام
فكم ضحك العميد على الحمايا ... وغر سراتنا منه ابتسام

وتدلنا هذه الأبيات بوضوح على أن الشاعر قد نفذ الى طبيعة السياسة الانجليزية فى مصر فأدرك أن وعود الانجليز ومحادثاتهم ومفاوضاتهم تكاد تكون عبثاً لا طائل تحته ولا خير فيه . ولعل الأيام نفسها قد أثبتت صدق هذا الرأى ؛ فمنذ وطئت جيوشهم البلاد وساستهم لا يبخلون بالتصريحات الرسمية وغير الرسمية يؤكدون فيها أن بقاءهم فى مصر مؤقت وأن جلاءهم عنها دان قريب .

ومنذ أن كلف المصريون بالمفاوضات وضعوها وسيلة مثمرة لحل القضية المصرية لم تر هذه القضية تقدما جوهريا ولم يتحقق شىء من الأمانى الوطنية ، وكانت هذه المفاوضات كلها على تعددها تنتهى الى الفشل ، ولعلنا نذكر مفاوضات كرزون ومكدونالد وتشمبرلن وهندرسن ، فقد كانت كلها قصة واحدة وإن اختلفت الأشخاص .

أما معاهدة سنة ١٩٣٦ وكانت فى الواقع صفقة سياسية لمصلحة بريطانيا تمكنت عن طريقها من تدعيم مصالحها الحربية فى مصر وتنظيمها تنظيما كان له الأثر الفعال فى كسب الحرب . . . أما قضية مصر ذاتها

فلم تلق فيها حلا حاسما : وحسبنا أن نذكر أن مَنْ وقعها من الساسة المصريين الذين أخذوا بالعبارات المعسولة والألفاظ الخلابة والشروط المرنة بادىء الأمر قد انتهوا أخيرا بعد أن تكشّفت لهم الحقيقة إلى انكارها واستنكارها . وكل هذا يعتبر بحق تدعيما لنظرية الشاعر وأقواله التى أوردنا وكأنه كان يرى الغيب ببصيرته النافذة النيرة .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعى أن يكون الرجل متشائما فى أمر جلاء البريطانيين عن مصر ... والواقع إن قصة هذا الجلاء عنده قصة أليمة ؛ فهو لا يعتقد بحال أن هذا الجلاء سيتم يوماً . وأنت تراه يحشد فى الأبيات الآتية طائفة من المستحيلات لا يذكرها حتى يذكر يوم الجلاء الذى يبادر فيقرنه بيوم النشور :

وأكبرُ ظنّى أنَّ يومَ جلائِهم	ويومَ نشورِ الخلقِ مقترنانِ
إذا غاضتِ الأمواهُ من كلِّ مُزبدٍ	وخرّتْ بروجُ الرَّجْمِ للحدثانِ
وعاد زمانُ السمهرىِّ وربّه	وحُكّمَ فى الهيجاء كلُّ يمانى
هنالكَ اذكرا يومَ الجلاءِ ونبّها	نياماً عليهمْ يندبُ الهرمانِ

وحين قال أحد الفرنسيين إن جلاء الانجليز سيحدث فى شهر أكتوبر لم ير حافظ فى هذا القول إلا أنه أسلوب جديد من كذبة ابريل :

كمْ حدّدوا يومَ الجلاءِ الذى	أصبحَ فى الأيام كالمحشرِ
وسنَّ قومُ الطيشِ من جهلِهم	كذبةَ (إبريلَ لأكتوبر)

وإذا لم يكن لنا ومهمتنا الأولى العرض والتحليل أن نتعرض لصحة هذا الرأى أو خطئه بشىء ، وإذا كنا نرجو – والجلاء أعز أمانينا القومية – أن يخيب الله من ظن شاعرنا وأن تثبت الأيام فساد رأيه فى هذا الشأن بالذات .... فإن هذه الأبيات تدلنا على أنه قد بلغ بتشاؤمه فى أمر السياسة البريطانية وطبيعتها أقصى الحدود وأعلى الذروات .

٢٤

وكان طبيعياً والحالة هذه أن يحفل صاحبنا من تصريح ٢٨ فبراير . ولقد أحسن تصوير انقسام القوم فى أمره واختلافهم على طبيعته ، ترى أكان استقلالا حقيقياً أم كان نوعاً من المسكنات السياسية فتراه يقول :

أصبحْتُ لا أدرى على خبرةٍ … أجَدَّتِ الأيامُ أم تمزحُ ؟
أموقفٌ للجدِّ نجتازُه … أمْ ذاكَ لِلاَّهى بنا مَسرحُ ؟
المحُ لاستقلالِنا نَمْةً … فى حالِكِ الشكِّ فأسْتروحُ
وتطمسُ الظُّلْمةُ آثارها … فأنْثنى أُنكِرُ ما ألْمح
قدْ حارتِ الأفهامُ فى أمرهمْ … إن لَمَّحوا بالقصْدِ أو صرَّحُوا
فقائلٌ لا تعجلوا إنَّه … مكانَكُمْ بالأمْس لَمْ تبرحُوا
وقائلٌ أوْسِعْ بها خُطوةً … وراءَها الغايةُ والمَطمحُ
وقائلٌ أسرفَ فى قولِه : … هذا هو استقلالُكُمْ فافرَحُوا

أما رأيه هو فى هذا التصريح فيقف وسطاً بين نظرة العقل العملى الذى يميل الى التسليم بالأمر الواقع فيحاول أن يستغل الموقف السياسى الممتاز الذى يهيئه هذا التصريح لمصر فى التقدم بالبلاد نحو الحكم النيابى فيقول :

إن تسألوا العقلَ يَقُل عاهِدُوا واستوثِقوا فى عهدكم ترْبحُوا
وأسسُوا داراً لِنُوّابكم للرأى فيها والحِجا أفسِحوا

وبين نظرة البصيرة النافذة التى تخترق حجب الظاهر وتستشف من ورائه دواعى الشك والحذر فيردف قائلا :

أو تسألوا القلبَ يَقُلْ حذِرُوا وصابروا أعداءكم تفلحوا
إنّى أرى قيْداً فلا تُسْلِموا أيديكُم والقيدُ لايُسْجِح

ومهما يكن من الأمر فالواقع إن مكانة تصريح ٢٨ فبراير فى مركز مصر السياسى والدولى الحديث لايمكن تجاهلها ... وحقيقة الحال فى هذا التصريح أن مصر كانت الى عام ١٩١٤ تابعة اسمياً لتركيا ولكن السلطة الفعلية كانت بيد الانجليز منذ سنة ١٨٨٢ : فلما قامت الحرب العظمى وانضمت تركيا الى الأعداء — اعداء بريطانيا — كان مركز مصر مركزاً شاذا اضطر الانجليز معه الى إعلان فصلها عن الدولة العلية وجعلها سلطنة تحت الحماية البريطانية . وكان المفهوم من الحماية طبعاً أنها ضرورة حربية لازمة للدفاع عن مصر أو بالأحرى عن الامبراطورية

البريطانية : فمصر كانت هدفا لهجوم تركيا وحلفائها من الشرق ؛ ولقد وقع هذا الهجوم فعلا وتولت بريطانيا ومصر معاً صد هذا الهجوم .

ولا ريب أن مصر أفادت من هذا الموقف كثيراً — من الناحية النظرية على الأقل — لانه أتاح لها فرصة التخلص من أحد النيرين اللذين كانت ترزح تحت عبئهما وهما تركيا وبريطانيا ؛ وبقى عليها أن تتخلص من هذه الأخيرة حتى تستخلص استقلالها وتستكمل سيادتها كدولة مستقلة خالصة من كل تبعية اسمية كانت أو فعلية .

وعقد لواء النصر آخر الأمر لبريطانيا وحلفائها ؛ ولم تكد تعلن الهدنة فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ حتى قام المصريون بزعامة سعد زغلول مطالبين بحق مصر فى تقرير مصيرها .. وهل كان لمصر أن تقرر شيئا غير الاستقلال التام ؟! ولكن هل ينتظر من بريطانيا أن تقر مصر على ماتريد وهى الدولة الثملة بنشوة النصر والتى لم تكن قد تحررت بعد من سيطرة العسكريين وسياستهم ؟! ومن هنا كانت معارضة بريطانيا ومناهضتها لمطالب الوطنيين ؛ ومن هنا كان قيام الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، وظلت مصر خلال سنوات ثلاث أو تزيد مسرحاً لاضطرابات وقلاقل شديدة ، وصارت فوق هذا الى حال من التبلبل السياسى ؛ ووقع الخلاف بين زعمائها على الوسيلة التى يمكن أن تصل بها الأمة الى هدفها ، ونشأت بذرة الأحزاب السياسية المصرية .

وتمكن أخيرا ثروت باشا من حمل بريطانيا على إصدار تصريح

تعلن فيه اعترافها بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة مع احتفاظها بتحفظات أربعة تتعلق فى الأصل بسلامة مواصلات الامبراطورية والسودان ، تكون هذه التحفظات موضوعاً لمفاوضات مقبلة بين بريطانيا ومصر المستقلة .

إلا أن المتطرفين من الساسة المصريين لم يروا فى هذا التصريح كل أمانى مصر ، بل أخذوا ينظرون اليه وكأنه أشبه بنكبة سياسية حتى أنهم راحوا يصفون ٢٨ فبراير « باليوم الأسود » وظلوا مدى حين يدعون الى الاضراب فيه احتجاجاً واستنكارا . على أن النظرة الحزبية بمسائل السياسية شيء ، ونظرة الحق والانصاف شيء آخر ... فحصول دولة كمصر فى ظروفها التاريخية وفى موقعها الجغرافى على استقلالها التام فى عمضة عين أمر لا يمكن أن يطالب به منصف تتقيد آماله بالواقع من الأمور ؛ وحسب السياسى المصرى أن ينتزع مثل هذا التصريح من الدولة صاحبة الشأن وهو المفاوض بحقه وحجته دون جيش أو أسطول .. واذ لم يكن لأحد أن يعتبر هذا التصريح نهاية الأمانى القومية لمصر الناهضة فليس لأحد فى الوقت نفسه أن ينكر أنه الخطوة التى كان لا بد منها للوصول إلى هذه الأمانى القومية .

ولقد سارت أوضاع السياسة المصرية بالفعل فى هذا الطريق . وحتى أولئك الذين أنكروا هذا التصريح بقولهم قد أقروه واعترفوا به بأعمالهم ، فاشتركوا فى الانتخابات وألفوا أول وزارة دستورية فى

مصر المستقلة ؛ وغدت تحفظات ٢٨ فبراير والاتفاق عليها وتسويتها قبلة الساسة المصريين ومحلا لمفاوضات عديدة الى يومنا هذا ، وإن لم يكن قد اعترفوا رسميا أنهم يفاوضون على أساسها .

ولقد رأيت كيف وصف حافظ ابراهيم موقف القوم من هذا التصريح عند صدوره، وكيف كان أقرب فيما قال الى روح الانصاف والاعتدال . وهو يعود فى فرصة أخرى و يبسط رأيه فيه بما لا يختلف فى شىء عن موقفه الأول منه وإن يكن قد زاده وضوحاً وتحليلا ؛ وكان ذلك عند رثائه المغفور له ثروت باشا حين قال عنه :

وأتى بأقصى ما ينالُ مفاوضٌ ... يسعى بغيرِ كتائبٍ وحِرابِ
واستلّ من أشداقِ آسادِ الشرى ... عَلَماً عضضنَ عليهِ بالأنيابِ

. . . .

إنْ فاتَه بعضُ الأماني فاذكروا ... أنَّا أمامَ محتّكينَ صلابِ
قد جازَ تيهاءَ الأمورِ ولم يكنْ ... فى وعرِها وكؤودِها بالكابي
رجُلٌ يفاوضُ وحدَه عن أمةٍ ... إنْ لم يفزْ فوزاً فليس بعابِ
رَفعَ الحمايةَ بعدَما بُسِطَت على ... أبناءِ مصرَ وأيّدتْ بكتابِ
وأتى لمصرَ وأهلِها بسيادةٍ ... مرفوعةِ الأعلامِ والأطنابِ

وهذه السيادة التى اعترف بها تصريح ٢٨ فبراير أتاحت للمغفور له الملك فؤاد الأول أن يعلن استقلال البلاد فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ...

ولقد أثار هذا الاستقلال فى نفس شاعرنا شعور الغبطة والتفاؤل بالعهد الجديد الذى بدأته مصر المستقلة فتراه يقول فى العيد الأول لهذا الاستقلال :

يومٌ يُريكَ جلالُهُ ورُواؤه — فى الحُسْنِ قُدْوةَ فالِقِ الإصْباحِ
خلَعَتْ عليه الشمسُ حُلَّةَ عسْجدٍ — وحَباهُ (آزارٌ) أرقَّ وِشاحِ
اللهُ أثبتَهُ لنا فى أوْجهِ — أبدَ الأبيدِ فما له من ماحِي
حَيِّيه عنَّا يا أزاهِرُ وامْلئِى — أرجاءَه بأريجكِ الفوّاحِ
تِهْ يا فؤادُ فحولَ عرشِكَ أُمّةٌ — عقَدَتْ خناصِرَها على الإصلاحِ

وأظنك تحس أن روح الغبطة والجذل تشيع فى هذه القصيدة ... والحق إنها قصيدة عامرة بالأمل ذاخرة بروح الزهو والفخار . ولعل من الأمور الجديرة بالملاحظة أنه فى هذه المرة لم يشد بمجد مصر وحدها بل كانت إشادته بالنيل جميعا فكان هذا تعبيرا وإن يكن خفيا عن مبدأ « وحدة وادى النيل » :

لِلنِّيل مجْدٌ فى الزمان مؤثَّلٌ — مِنْ عهْدِ آمون وعهدَ فتاحِ
فَسلِ العُصُورَ به وسَلْ آثاره — فى مِصرَ كَمْ شَهِدتْ من السُّيَّاحِ

ثم يتطرق بعد هذا الى الوجه السياسى لوحدة الوادى فتراه ينادى فى ثبات ودون خشية أو تردد بوحدة مصر والسودان ممثلة فى وحدة التاج والعرش ومدعمة بالصلات والعلاقات التاريخية المتينة . وإذا كانت مشكلة السودان لم تكن قد تبلورت بعد إلى ماهى عليه الآن فلعل

الشاعر كان يشير إشارة خفية وقوية إلى ماأثير آنئذ حول لقب ملك مصر حين توجه بالقول الى جلالة الملك فؤاد :

يا صاحب القطرين غير مدافع ... ما مثل ساحك في العلا من ساح
لك مصر والسودان والنهر الذى ... يختال بين ربى وبين بطاح
وبواسق السودان تشهد أنها ... غرست بعهد جدودك الفتاح

واقد افصحت هـذه المناسبة القومية السعيدة — مناسبة اعلان الاستقلال — عن ايمان حافظ ابراهيم بالحكم النيابى وصدق الاشادة به ؛ وهو يعبر فيما يلى من الأبيات عن ذلك الأمل الذى كان يداعب الأمة فى ذلك الحين باصدار الدستور إيذاناً ببدء الحياة النيابية ؛ وكان هذا أمراً مقرراً بل كان فعلا فى طريق التنفيذ ... والفضل فى هذا يرجع بلا ريب إلى المغفور له الملك فؤاد الأول عاهل مصر المستقلة ؛ فقد أبى رحمه الله بحكمته السياسية السامية وبروحه الوطنية العالية إلا أن يكون الدستور أعز هدية وأسمى هبة يقدمها لشعبه — فلم يكد يعلن استقلال البلاد حتى أصدر أمره الكريم بتأليف لجنة الدستور التى عكفت فى جد على إعداده لجعله دستوراً متزناً محكماً بنى على أحدث المبادى. .. وهكذا رأى المصريون أنفسهم غداة الاستقلال واذا بالبرلمان حقيقة ماثلة :

البرلمان تثبتت أسسه ... لا يتقى من سبب سوى المفتاح
هو فى يديك وديعة زعية ... تثنى بألسنة عليك فصاح

رُدَّ الوَديعةَ يافؤادُ فإنما ... رَدُّ الوديعةِ شيمةُ المِسْماحِ
وانهَضْ بشعبِكَ يافؤادُ إلى العُلا ... وإلى مكانٍ في الوُجودِ بَراحِ

وفى هذا المعنى يقول أيضا بين يدى جلالة الملك فؤاد فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ :

وَدارُ البرلمـــانِ أعزُّ دُرٍّ ... تُشدُّ بِطائِبِ المجْدِ المقيمِ
بها يتَجمَّلُ العرشُ المُفَدّى ... ونحيي مِصْرُ في عَيْشٍ رَخيمِ
فشَرِّفها بِرُؤيَتِكَ واختتِمْها ... ونَفِّذها بدُستُورٍ كَريمِ

٣٥

إلى هنا تبدو بجلاء ووضوح درجة الخصب التى كان عليها شعر حافظ السياسى . ولكن هنا يدعو إلى الإشفاق أن الفترة بين ١٩١١ و ١٩٣٢ وهى فترة طويلة كانت نضب أوقاته بالشعر السياسى العنيف على الرغم من أن هذه الفترة من تاريخ مصر شهدت أحداثاً سياسية هامة لا بد أن نفسيته قد تأثرت بها واستجابت لها . . . وليس هذا النضوب من سبب سوى أنه كان موظفاً حكومياً فى هذه الفترة ؛ ولقد كان حافظ يحرص على دوام هذه الوظيفة وبقائها أشد الحرص ، وهو أمر طبيعى لرجل لم تيسر له الحياة من الدعة ما يغنيه عن مال الوظيفة التى تقيده بالولاء التام للسلطة القائمة . . الولاء الظاهر على الأقل .

وفى رأيي أن اللائمة فى هذا يجب الا تنصبّ على حافظ ابراهيم وحده ، بل هى تقع أولا و بالذات على العصر الذى كان يعيش فيه ... على العصر الذى لم يقم أولو الشأن فيه وزنا كبيرا للحرية السياسية والذى لم يجد ا كتمال هذه الحرية إلى نفوس القوم سبيلاً . . . وإلى عام ١٩٢٣ كانت الأحكام العسكرية مطبقة بنيرها الثقيل على البلاد، وفى جو الأحكام العسكرية الخانق لاتتنفس الحرية فى كثيرأو قليل . ولقد صدر الدستور فى ١٩ ابريل من هذه السنة وكان يظن أنه خير ضمان للحرية الفردية والسياسية والفكرية ؛ ولكنا شاهدنا العواصف التى تعرض لها الدستور مرارا والحركات الرجعية المتعاقبة التى رصدها بعض الساسة له ، وأثبت الواقع العملى أن الدستور قلما يفيد فى دفع غائلة الطغيان والظلم متى كان الحاكم طاغية ،طبعاً كان الأمر منه أم تطبعا ... فشاعرنا ليس بمسئول إذن مسئولية كاملة عن هذا الجمود الذى وقعه فى هذه الفترة التى انتهت عام ١٩٣٢ حين أحيل الى المعاش . . . وهنا تخلص من تلك القيود فانطلق من جديد ينظم شعره فى شؤون السياسة وأحوالها فأخذ ينشر مقطوعات يهاجم بها الحركة العنيفة التى كانت تقوم بها وزارة دولة صدقى باشا . وحسبنا أن نعرض شيئاً من هذه المقطوعات التى تفصح عن تقدم ملحوظ فى شعره السياسى :

١ — قد مرَّ عامٌ ياسُعادُ وعامُ وابنُ الكِنانةِ فى حِماهُ يُضامُ

صبُّوا البلاءَ على البلادِ فنصفُهم ... تجبى البلادَ ونصفهم حكامُ
أشكو إلى (قصرِ الدُّبارة) ما جنى ... صدقي الوزيرُ وما جنى علاّمُ
أمِنَ السياسةِ والمروءةِ أننا ... نشقى بكم فى أرضنا ونُضامُ
إنَّا جمعنا للجهادِ صفوفَنا ... سنموتُ أو نحيا ونحن كرامُ

٢ — وإلى المندوب السامى البريطانى :

ألمْ ترَ فى الطريقِ إلى (كيادٍ) ... تصيدُ الحظَّ بؤسَ العالمينا
ألمْ تلمحْ دموعَ الناسِ تجرى ... من البلوى ألمْ تسمعْ أنينا ؟
ألم تُخبَرْ بنى التاميزِ عنَّا ... وقدْ بعثوكَ مندوبًا أمينا
بأنَّا قد لمسنا الغدرَ لمسًا ... وأصبحَ ظنُّنا فيكمْ يقينا ؟
سنجمع أمرنا وترونَ منَّا ... لدى الجُلَّى كرامًا صابرينا

٣ — ومن أحسن شعره فى هذه الفترة القصيدة الآتية المملوءة عنفًا وتحديا للأساليب الغاشمة التى كانت تسودُ السياسة المصرية آنئذ :

حوِّلوا النيلَ واحجبُوا الضوءَ عنَّا ... واطمسوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملئوا البحرَ إن أردتم سفينًا ... واملئوا الجوَّ إن أردتم رجوما
وأقيموا للعسفِ فى كلِّ شبرٍ ... (كُنْستبلا) بالسَّوطِ يفرى الأديما
إننا لن نحولَ عن عهدِ مصرٍ ... أو تروْنا فى التُّربِ عظمًا رميمَا

٤ — ويقول منددًا بمسلك حكومة ذلك العهد إزاء دكتور طه حسين بك وغالب بك :

قد راعَ دارَ العدل طغيانٌ وراع الجامعه
حَمَيتُما حرَميهما رغمَ الخطوبِ الفاجعه
وقهرتما الباغى على ردِّ الحقوقِ الناصعه
لله درُّ المستشار ودرُّ ذاكَ الباقعه
فهُما الأذانِ تكفّلا عنّا بصدِّ القارعه

٥ — ونختم هذه المجموعة بهجمته لسياسة المندوب السامى سير برسى لورين الذى كان يدّعى الحيدة فى الشئون المصرية الداخلية :

(قصرَ الدُّبارة) قد نقضتَ العهدَ نقضَ الغاصبِ
أخفيتَ ما أضمرتَه وأبنْتَ وُدَّ الصاحبِ
الحزبُ أروحُ للنفوس من الحيادِ الكاذبِ

هذا ما جادت به قريحة حافظ ابراهيم فى هذه الفترة الوجيزة ودلائل الحرية فيه بادية واضحة ، فهو عنيف فى هجومه صريح فى مناجزته . ولا شك أن الأجل لو كان أمهله لنمَتْ عنده هذه النزعة ولاستغلّ تحرُّره من قيود الوظيفة أحسن استغلال ولأفاد الشعر السياسى أعظم فائدة . . . خصوصا وقد كان له من ماضى خبرته وثابت عقيدته وصافى وجدانه عُدّة لا غناء للشاعر المعتز عنها . . . نقول لو أن الأجل أمهله لأفاد الروح القومية بشعره وقد كاد يبلغ به الذروة حين أخذت بشائر الحرية تبدو واضحة فى نظمه فى أيامه الأخيرة .

ولكنا مع هذا يجب أن نلاحظ أن شاعرنا حتى فى هذه الفترة التى تخلص فيها من قيود الوظيفة كان يلازمه شىء من الحذر والوجل . . . الوجل من الطغيان والعسف . ولذا نراه يحتال على حكومة ذلك العهد بمهاجمة المندوب السامى كى يجنّب نفسه سخطها المباشر وطغيانها . . . نقول إنه كان حذراً وجلا ولقد صرّح هو بذلك حين قال لأحد أصدقائه إنه يخشى السجن ولا يحتمله . وهذه حقيقة لاأراها تسىء الى حافظ ابراهيم الشيخ المريض الذى بدأ الوهن يسعى اليه ويدب فى بدنه بقدر ماتسىء الى أحلافنا السياسية التى لم تكن تقدر بعدأصول الخصومة حق قدرها . وأكبر الظن أنها لم تكن لتأبى أن تنال من شيخ ضعيف عليل . . . . وليس من الإنصاف فى شىء أن نلومَ الباكى ونحنو على الضارب أو نقسو على الرمية ونغض الطرف عن الرامى

. . . .

وبعد فهذا عَرْض موجز شامل لشعر حافظ ابراهيم السياسى والاجتماعى . ومنه يتبين أنه كان رحمه الله إمامَ هذا الفن من فنون الشعر بلا منازع ليس فى العصر الحديث وحده بل فى سائر عصور اللغة : فنحن لانكاد نعرف شاعراً غيره قويت عنده العاطفة الاجتماعية إلى حد استطاع معه أن يخرج بالشعر من ثنايا النفس إلى رحاب المجتمع ، ولا نكاد نعرف شاعراً غيره امتزجت نفسه بالمجتمع امتزاجا طبيعيا ضحى

معه صورة صادقة لقومه ومقياساً حساساً لخلجات شعورهم وترجماناً أميناً لآلامهم وآمالهم . . . هذا الى أنه لم يُسلم قياده الى العاطفة الجامحة بل قرن العاطفة بالعقل الراجح والفكر المتئد الرزين ، وكان بهذا كله شاعر السياسة والاجتماع طوال حياته الفنية ، حتى ليكاد يكون شعره سجلا وافياً وتاريخاً مفصلا للأحداث السياسية والاتجاهات الاجتماعية التى كانت تجرى على مسرح الحياة فى أيامه . . . ولعلنا مازلنا نشعر منذ أن فارق شاعرنا الحياة بهذا الفراغ العظيم الذى تركه دون أن يُملأ ولو فى جزء منه . فها هى ذى الأحداث تتوالى وتفيض فيضان النهر دون انقطاع أو توقف ، وهاهى ذى المحن والتجارب لاتنفك تحل بمصر والشرق فلا نجد من الشعر لساناً معبراً أو حافزاً يثير الشعور ويلهب الحماس وينير السبيل ويهدى إلى الطريق السوى ؛ فالشعر السياسى والاجتماعى قد آل أمره من بعده إلى نضوب وإملاق . . . ألعلها فترة من الاستجمام يعود بعدها هذا الفن الى سيرته الأولى . . . أم ترى هل فُرض لهذا الفن من فنون الشعر أن تُطوى صفحته حين يطوى الردى حافظ ابراهيم ؟! هذا ماتتكفل الأيام وحدها بالإجابة عنه .

